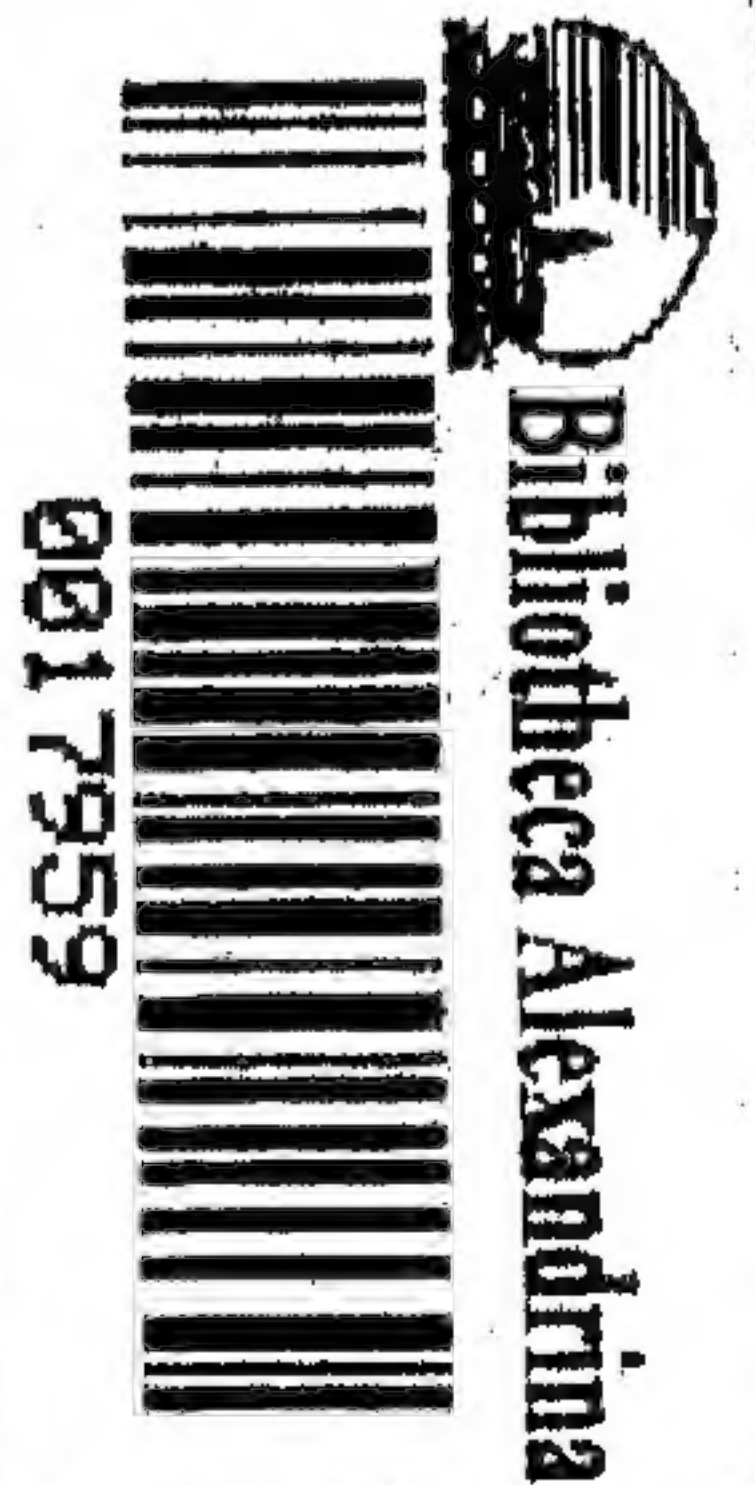


رکتور قاسم عبده قاسم

النيل والمجتمع المصري
فان عصر لاطين الممالكة



دار المعارف



النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك

دكتور فاضل حيدر فاضل

مدرس تاريخ المصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٧٨



دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٢٠٢٠ ع .

إهداء

إلى أبي وأمي . . . عطاء أرض النيل الطيبة

قاسم عبده قاسم

محتويات الكتاب

الصفحة

إهداء	٣
مقدمة	٧
الباب الأول : النيل والحياة الزراعية	١٣
الباب الثاني : فيضان النيل وعلاقته بالأزمات الاقتصادية والمجاعات والأوبئة	٥٣
١ الباب الثالث : أهمية نهر النيل كطريق للمواصلات والتجارة والحملات العسكرية	٧٩
الباب الرابع : نهر النيل في كتابات المعاصرين	٩٩
خاتمة	١٢٣
ملحق رقم ١ : ثبت بالمجاعات والأوبئة التي ألت بمصر في عصر سلاطين المماليك	١٢٩
قائمة المصادر والمراجع	١٣٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لا يوجد نهر في الدنيا له من الفضل على إقليم ، ما لنهر النيل من الفضل على مصر وساكنيها ، فالتربة المصرية - التي تعد من أنخصب التربات في العالم - منقول جلها أو كلها من فوق جبال الحبشة البركانية بواسطة فيضان النهر السنوي ، ومن ثم فإن وادي النيل في شطره المصري - من أسوان حتى البحر المتوسط - تكوين رسوبي حمله النهر من فوق جبال الحبشة ليلقيه في الصحراء مكوناً ذلك الوادي الخصيب الذي شهد مولد حضارة من أعرق حضارات الأرض بل أعرقها ، صارت أمماً ومنبعاً وأصلاً لكل الحضارات التالية .

وكان واضحاً لساكني مصر ومن خالطوهم أو جاوروهم أن هذه الحضارة المبكرة في النضوج والرقى ازدهرت ونمت بفضل نهر النيل . لا غرابة إذن أن يصبح النهر محط اهتمام المصريين وغيرهم ممن سكن البلاد أو حكمها منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا فقد بدأت محاولات استكشاف النهر منذ بدأ إنسان مصر القديمة يتحول إلى الزراعة وبدأت أيضاً في تلك المرحلة المبكرة محاولات تطويع النهر لإرادة الإنسان المصري ، ونشأت في ذلك العهد البعيد تلك المسألة الجغرافية المشهورة «مسألة النيل» أو «سر النيل»^(١) واستمرت محاولة كشف النهر في خط مواز لمحاولة تطويعه ، فمن رحلات المصريين القدماء ، فال يونان وأشهرهم بطليموس الجغرافي ، ثم العرب في قرون الهجرة الأولى فكتاب العصور الوسطى ، تتابعت المحاولات ووضعت النظريات التي تشوبها الخرافات أحياناً كثيرة حتى جاءت المرحلة الحاسمة في العصر الحديث إذ تعاقب المستكشفون من عهد محمد علي حتى بداية القرن الحالى وأميط ذلك اللثام الذي كان يحجب النهر في

(١) محمد عوض محمد ، نهر النيل ، ص ٣ . (الطبعة الخامسة)

مجره الأعلى ومنطقة المنابع ، وانكشف « سر النيل » بعد عناء استمر عبر القرون والأجيال^(١).

على أن هذه الملامح الجغرافية (طبيعية كانت أو بشرية) ليست كل القصة فيما يتعلق بالنهر الخالد . فمن بديهيات الوجود المصرى أن هذه الواحة الفيضية الكائنة على أبواب أفريقيا الشمالية الشرقية وجدت بفضل النهر فيما عبر عنه هيرودوت بقوله « مصر هبة النيل » وما زالت تعيش بفضلها ، تسعدها خيراته في الفيضان السنوى ، وتزعجها نزواته إذا فاض فأغرق أو إذا غاض فأعطش ؛ ومن ثم قامت حول النهر وعلى ضفتيه أم الحضارات وقوامها الزراعة ، وانكب هؤلاء الزراع من أبناء الكنانة يشيدون حضارتهم التي تشهد على عظمتها تلك الآثار المادية واللامادية التي خلفتها في عالم اليوم ، وقامت حول النهر ومحاولات تطويعه حياة شعب بأكمله فألبسوه ثوب القداسة فهو « الإله » في عصور الوثنية ، ثم « النهر المؤمن » وهو من « أنهار الجنة » في عصر التوحيد . . . وتتابع فصول التاريخ وعصوره على مصرنا الطيبة حتى تأتى تلك الطائفة من الغرباء المجلوبين عبيداً في طفولتهم ليشبوا ويحكموا البلاد لفترة تزيد عن قرنين ونصف من الزمان في تلك الحقبة التاريخية التي عرفت باسم « عصر سلاطين المماليك » وفي هذا العصر — كما في غيره من العصور — ظل النهر قوام الحياة المصرية ، فرغم أن مصر قد عرفت « تجارة المرور » في ذلك الوقت وجنت منها الأرباح الطائلة إلا أن النيل ظل — بفيضه وغيبه — المؤثر الأول والفعال في حياة البلاد الاقتصادية فإذا كان الفيضان عالياً زرعت الأرض ، وجنى الناس المحصولات الجديدة « وخرجت تلك السنة على خير » على حد تعبير ذلك العصر . أما إذا نقص النهر عن حد الوفاء تجسد شبح المجاعة يتوارى خلفه شبح الوباء ، وانتشرت حالة « الموتان » ، واضطر الناس إلى أكل الكلاب والقطط والحمير ، وماجت البلاد بالفوضى والاضطراب . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى شهدت صفحة النهر احتفالات المصريين وأفراحهم ومنتزهاتهم التي شارك فيها الجميع ابتداء بالسلطان وكبار الأمراء ، وانتهاء بالشعب وأبنائه الذين دأب مؤرخو تلك العصور على تسميتهم « بالعامية » .

وكما كان النهر ملهماً حضارياً لشعبنا الطيب المكون من ملايين الزراع صناع

الحضارة والمدنية في حياتهم السلمية . فقد شهدت مياه النهر كثيراً من معارك تأمين البلاد ضد الخطر الخارجى ، وخروج الأساطيل المملوكية تحمل الرجال والعتاد لتأديب من يعيثون بأمن البلاد .

وقد اخترت هذه الفترة لمعالجة موضوع « نهر النيل وأثره في الحياة المصرية على عصر السلاطين المماليك » وكلى أمل أن يوفقنى الله إلى إلقاء بعض من الضوء على بعض جوانب حياة الشعب المصرى آنذاك ، وقد اخترت لنفسى منهجاً آثرت فيه الالتزام بالموضوع غير متقيد بالتسلسل الزمنى وبناء على ذلك فقد قسمت البحث إلى أربعة أبواب يعالج كل منها موضوعاً مستقلاً ، ثم ألحقته بثبت بسنوات المجاعة والوباء طوال عصر سلاطين المماليك . هذا بخلاف الخاتمة التى تحوى أهم ما أظن أننى وفقت إلى استخلاصه من نتائج .

فالباب الأول : يعالج الفيضان وأهميته بالنسبة للأرض الزراعية ومواعيده ومناسيبه ثم يتحدث عن نظام الرى والزراعة متطرقاً إلى وسائل ضبط النهر من سدود وترع وقناطر وما إلى ذلك ويناقش كيفية بناء وصيانة هذه الجسور . . . كما تناولت فى هذا الباب نظام العمل فى السدود والقناطر والحلجان . ومن ناحية أخرى تكلمت عن طريقة قياس الزيادة وإعلانها ، وتلك المهرجانات الضخمة التى تصحب الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج والأعياد الأخرى المرتبطة بالنهر وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية المرتبطة بنهر النيل . . . وقد تناولت أيضاً أثر فيضان النهر السنوى — مؤشر الرخاء أو الشقاء — على الحياة السياسية على أساس أنه لا يمكن التحديد بشكل قاطع بين الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية فكل منها تؤثر فى الأخرى بشكل يصعب تحديد مداه .

وفى الباب الثانى : تناولت علاقة النهر بالمجاعات والأوبئة التى ألت بالبلاد فى عصر سلاطين المماليك مع عرض تلك المجاعات والأوبئة ، وما كانت تبدو فيه البلاد آنذاك من صورة محزنة ، وما كان لها من تأثيرات فى حياة الناس اليومية ، مع توضيح بعض الأسباب الأخرى (غير فيضان النيل) التى كان ينشأ عنها الاضطراب الاقتصادى كما تناولت موقف « الدولة » — ممثلة فى سلاطين المماليك وكبار الأمراء من أصحاب

المناصب - من هذه الأزمات وكيف أن وسائلهم لعلاجها لم تخرج كثيراً عن نطاق التفكير الدينى والأخلاقى .

أما الباب الثالث : فقد تحدثت فيه عن أهمية نهر النيل كطريق للتجارة والمواصلات بين أنحاء البلاد المصرية ، وكيف أن القاهرة كان لها ميناءان إحداهما على ساحل الفسطاط والثانية على ساحل بولاق . كما تحدثت عن أهم موانئ البلاد على النهر فى عصر المماليك . . . بجانب ما شهدته النهر من استعراضات لقطع الأسطول بعد الانتهاء من عملها وتجهيزها « برسم الغزو والجهاد ، مع تناول الأهمية العسكرية لنهر النيل ، وكيف أنه استخدم كطريق أساسى وهام لنقل الحملات العسكرية والتجريدات لتأمين حدود البلاد ضد أخطار الأعداء فى الخارج أو لإقرار الأمن فى الداخل عن طريق حملات تأديبية ضد النوبة والعربان .

ويتناول الباب الرابع : ما جاء فى كتابات المعاصرين (لعصر سلاطين المماليك بطبيعة الحال) عن نهرنا العظيم ، وآثرت تقسيم هذا الباب إلى أقسام ثلاثة : يختص أولها بما جاء فى مؤلفات المؤرخين والجغرافيين فى العصور الوسطى ونصيب هذا النهر الخالد من القصص الدينى والحرافات والأساطير فى كتاباتهم . ثم ما كتبه هؤلاء عن مشاهداتهم الشخصية وعن النهر « وفضائله » والحيوانات المائية التى تعيش فيه . وفى القسم الثانى نقلت بعض النماذج الشعرية والنثرية التى تعكس ما كان للنهر من مكانة سامية فى قلوب ساكنى مصر ، وتوضح كيف أنهم خاطبوه مخاطبة العاقل ورحبوا به به وأحبوه وعاتبوه، وأنزلوه تلك المنزلة السامية من نثرهم وأدبهم ، ويتناول القسم الثالث ما كتبه الرحالة - وما أكثرهم فى ذلك العصر ضيوفاً على بلدنا الطيب - عن النهر العظيم ولما كنت أخشى الوقوع فى منزلق التكرار الممل فقد آثرت اختيار اثنين من الرحالة المسلمين ومثلهما من الرحالة المسيحيين الغربيين نموذجاً يدل على ما كتبه رحالة ذلك العصر .

وفى آخر البحث ألحقت محاولة لثبت بالمجاعات والأوبئة طوال العصر ، ورغم أن كلا منها تفاوتت فى مدى خطورتها وحدة فتكها بالناس ، فإنها فى النهاية كانت دليلاً على أن الشعب الزراع باني الحضارة والمدنية كان فريسة للمجاعات والأمراض

الوبائية طوال ذلك العصر الملىء بمظاهر الفخامة والثراء ، وبينما كانت مصر تقسم أرضها إلى أربعة وعشرين قيراطاً يتقاسمها الحكام ، يظل القيراط الخامس والعشرون « وهو الصبر على البلاء من نصيب الشعب » في مملكة السماء^(١) .

واخيراً فإننى يجب أن أتوجه بالشكر والعرفان بالجميل للأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ كرسى العصور الوسطى بجامعة القاهرة الذى ساعدنى كثيراً بما قدمه لى من نصائح وتوجيهات وإرشادات وأرجو الله أن أكون قد وفقت لإضافة بعض الجليل فى ميدان ما يزال فى حاجة إلى المزيد من الجهود المخلصة .

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم : ٨ أبريل سنة ١٩٧٨

(١) حسين فوزى ، سندباد مصرى ، ص ٢٠٧ .

الباب الأول

النيل والحياة الزراعية

الفيضان - نظام الري والزراعة - وسائل ضبط النهر -
مقاييس النيل - طريقة قياس الزيادة وإعلانها -
احتفالات وفاء النيل والأعياد الأخرى كمظهر للحياة
الاجتماعية - أثر فيضان النيل في حياة البلاد السياسية .

الحضارة المصرية عبر كل العصور حضارة نهريّة ، قامت أساساً على وجود
النهر ، فمن المعلوم أن وادى النيل في شطره المصرى عبارة عن تكوين فيضى من ترسيبات
الطمي الذي يجلبه النيل في فيضانه السنوى ، ومن ثم كانت الزراعة وما تزال إلى حد كبير
عصب الاقتصاد القومى المصرى ، ولما كانت الزراعة تعتمد على مياه النهر اعتماداً كلياً
(لأن أمطار مصر شتوية قليلة ولا يمكن الاعتماد عليها سوى في زراعة محاصيل شتوية
بسيطة على السواحل الشمالية الغربية) فإنه يجدر بنا أن نبدأ هذا البحث بالحديث
عن الفيضان السنوى لنيلنا العظيم .

ومن المعلوم أن التربة المصرية « تربة منقولة » فمعظمها - إن لم تكن كلها - نتيجة
تراكم الرواسب النيلية . ومما سبب غنى الأرض المصرية وخصوبتها أن التربة تتجدد
كل عام ، فإذا استنفدت الزراعة ما فيها من المواد المخصبة عوض هذا فقد أو بعضه
ما يأتى به النيل فى العام التالى^(١) وقد شغلت مسألة مصدر مياه النيل إبان الفيضان
أذهان المفكرين زمنا طويلا ، وعلى كل حال فإن ارتفاع ضفتى النهر عن منسوب
المياه فى المجرى نفسه كان يحول دون أن تغمر المياه المزارع على جانبي النهر ، ولم
يكن ذلك يحدث إلا أثناء الفيضانات العالية ، وبخلاف ذلك كانت الأرض الزراعية
المصرية تروى عن طريق نظام محكم ومتشعب من السدود والترع والقناطر وسنعرض
لذلك تفصيلا فى الصفحات التالية .

(١) محمد عوض محمد ، نهر النيل ، ص ٢٦٥ - ٢٧٦ (الطبعة الخامسة) .

وتبدأ زيادة نهر النيل عادة في شهر بؤونة من شهور القبط ، وتستمر طوال شهرى أبيب ومسرى وإذا كان النيل زائداً ظل طوال شهر توت^(١) وتبدأ مياه الفيضان في الانحسار عن وجه الأرض في عشرين بابه ، أى أن مدة الفيضان حوالى ثلاثة شهور وخمسة وعشرين يوماً ، وتلاحظ بداية الفيضان في أسوان^(٢) .

وقد حاول بعض كتاب ذلك العصر (عصر سلاطين المماليك) ربط فيضان النيل بحركة الشمس والقمر في البروج الفلكية ، معتقداً أن هناك علاقة ما بين تحركات الأبراج الفلكية ومقدار زيادة نهر النيل ، فيقول المنوفى صاحب كتاب « الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد » « ... إذا أردت أن تعرف النيل يعنى زيادته ونقصانه فى أى سنة شئت ، فتعتبر ذلك بالقمر عند نزول الشمس برج الحمل ، فإن كان القمر فى برج الحمل أو الأسد أو القوس فهذه بروج نارية تدل على قلة الماء ونقصانه ، وإن كان القمر فى برج الثور أو السنبلة أو الجدى فهؤلاء بروج ترابية يكون النيل وسطاً ، وإن كان القمر فى برج السرطان أو العقرب أو الحوت فهذه بروج مائية يكون النيل كثير الرى ويخشى على الأرض تستبحر كثرة الماء ، وإن كان القمر فى برج الجوزاء أو الميزان أو الدالى فهؤلاء بروج هوائية يكون النيل كثير المنافع . . . »^(٣) .

وقد لاحظ مؤرخو العصور الوسطى أن نهر النيل يخضر ماؤه مع بداية الزيادة ، وهو ما كانت عامة أهل مصر فى ذلك الزمان يعبرون عنه بقولهم « توحم النيل » وقيل إن مياه النهر لا تكون صالحة للشرب آنذاك وفى رأيهم أن السبب فى ذلك هو أن الوحوش فى أعالى النيل ولاسيما الفيلة كانت تهرب من شدة الحر إلى البحيرات فى أعالى النيل وترقد فيها وينتج عن ذلك أن يتغير لون المياه ليميل إلى الخضرة ، وتأقى مياه الفيضان الجديدة لتدفع أمامها بهذه المياه المخضرة ، وتليها مياه الفيضان الحمراء ثم المكدره

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٢ ، المقرئى : الخطط ج ١ ص ٥٨ ، المحلى : مبدأ النيل على التحرير ص ٥ - ٦ (مخطوط) ويجدر بنا أن نلاحظ أن جميع التواريخ المتعلقة بأحوال النيل والزراعة وفقاً للتقويم الشمسى (الشهور القبطية) ويرجع ذلك إلى عهد الفراعنة إذ سارت الدورة الزراعية المصرية وفقاً للتقويم الشمسى .

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٥٤ .

Encyclopaedia of Islam : Art Egypt.

(٣) المنوفى : الفيض المديد ص ١٧ - ١٧ (مخطوط) .

كما شابها من الصخور وفتاتها المتساقط تجرفه مياه الأمطار من فوق جبال الحبشة^(١) .

وكان فيضان النيل السنوى محط اهتمام كل المصريين على اختلاف طبقاتهم ، يرقبون ميعاد مجيئه ، ويحسبون حسابه فإذا حدث أن جاء فيضان النهر مبكراً عن مواعده أو تأخر عن ميعاد الوفاء عد ذلك من النوادر الجديرة بالتسجيل وربما صنفوا له الأغاني والأشعار . وتمتلى مؤلفات عصر المماليك بالكثير من الأمثلة التى تؤيد ذلك فقد حدث سنة ٧١٧ هـ على سبيل المثال أن كان وفاء نهر النيل فى التاسع والعشرين من مسرى من شهور القبط « . . . وما وقع ذلك فى هذا العصر . . . »^(٢) كذلك حدث أن أوفى النهر سنة ٧٣٢ هـ قبل عيد النوروز بثلاثة أيام « . . . ولم يحدث هذا من سنين . . . »^(٣) . وفى سنة ٩٢٢ هـ أوفى النيل فى السابع والعشرين من شهر أبيب « . . . ولم يحدث ذلك من مدة طويلة . . . » فصنف مناديو البحر (المختصون بإعلان الزيادة) هذه الكلمات « النيل أوفى فى أبيب ، خُش يا حبيب ، وقد بقينا فى هنا ، يا فرحنا . . . » كما صنفوا كلمات أخرى غير هذه^(٤) .

هذا عن موعد الفيضان ، أما مناسيبه فينبغى أن نلاحظ حقيقة هامة وهى : أن المنسوب الذى كان يعتبر كافياً للرى فى بداية العصر المماليكى ، لم يعد يعتبر كذلك فى أواخر ذلك العصر ، ويرجع ذلك إلى عاملين هما :

أولاً : ارتفاع منسوب الأرض على ضفتى النهر بسبب تراكمات الطمى المجالوب مع الفيضان السنوى للنهر .

ثانياً : إهمال صيانة شبكة الجسور والترع والقناطر التى عن طريقها كانت تروى الأراضى الزراعية القريبة من مجرى النهر والبعيدة عنه على حد سواء ، ولاسيما فى الفترة الأخيرة من حكم سلاطين المماليك نتيجة للفوضى والفتن وحروب الشوارع التى أشعلتها طوائف المماليك خاصة بعد انحلال نظام تربية المماليك ، وازدياد عدد المماليك

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٦٠ ، النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٤ (ط. دار الكتب) .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣ ص ١٠٣ - ١٠٥ (مخطوط) .

(٣) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٤) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٠ (نشر د. محمد مصطفى) .

الجلبان^(١) وما سببوه من متاعب واضطرابات حتى صار السلاطين العوبة في أيديهم .

وعلى كل حال كان بلوغ الزيادة في نهر النيل تمام الستة عشر ذراعاً ، هو علامة الوفاء ، التي عندها يستحق الخراج وينقل القلقشندى عن المسعودى أنه إذا أتم النيل خمسة عشر ذراعاً ، ودخل في ستة عشر ذراعاً كان في ذلك صلاح لبعض الناس ، ولا يستسقى فيه ، وينقص خراج السلطان ، وإذا أتمت الزيادة الستة عشر ذراعاً وجب أداء خراج السلطان ، وتسمى زيادة الستة عشر ذراعاً هذه « بماء السلطان » إذ عندها تجب الدولة خراجها رغم أن ربع الأرض يتعرض مع زيادة الستة عشر ذراعاً للعطش ومن ثم ينعدم المرعى ، ويقرر المسعودى أن أتم الزيادات نفعاً للبلاد هي نسبة السبعة عشر ذراعاً لأنها تروى جميع البلاد ، وإذا زادت عن ذلك لتبلغ الثمانية عشر ذراعاً استبحر ربع أراضي البلاد (أى غطته المياه حتى يفوت أوان الزرع) . ويقرر القلقشندى أن هذا التقسيم لمناسيب الفيضان ظل سارياً حتى بداية القرن الثامن الهجرى تقريباً^(٢) (الرابع عشر للميلاد) ويبدو من تتبع أخبار النهر التي أوردها مؤرخو العصر المماليكى ، أنه حتى حوالى منتصف القرن الثامن الهجرى تقريباً كانت الزيادة التي تتعدى ثمانية عشر ذراعاً تتسبب في غرق الأراضي الزراعية ، وإذا قلت عن ستة عشر ذراعاً شرقت البلاد مما يؤكد التقسيم الذى أورده القلقشندى لمناسيب النهر أثناء الفيضان ومدى ملائمتها لحاجة الزراعة ، ففي سنة ٧٠٩ هـ انتهت زيادة النيل إلى خمسة عشر ذراعاً وسبعة عشر إصباعاً فشرقت البلاد^(٣) وفي سنة ٧١٧ هـ أكمل النيل ثمانية عشر ذراعاً وستة أصابع فغرقت كثير من الدور والأقصاب والبساتين ، وتلفت كثير من الزراعات^(٤) كذلك حدث سنة ٧٢٣ هـ ، ٧٢٤ هـ أن زادت مياه

(١) الجلبان هم المماليك الذين دأب سلاطين المماليك منذ القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع والعاشر الهجرى) على شرائهم كباراً في سن البلوغ مما جعلهم لا يدينون بالولاء لأستاذهم ، بل أصبحوا خطراً على شخصه ، وقد تسببوا في كثير من الفتن والقتل وأواخر عصر المماليك (سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٧٢ - ١٧٣) .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٠ .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٠ (ط بولاق)

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٣ ص ١٠٣ (مخطوط) .

الفيضان عن ثمانية عشر ذراعاً فأغرقت الكثير من الدور والزراعات والأقصاب والسواقي ، وصارت المراكب لا تجد براً تضرب فيه الوتد من قوص إلى القاهرة^(١) .

وقد أورد عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب « الإفادة والاعتبار » والذي ألفه بالقاهرة سنة ٦٠٠ هـ تقسيماً طريفاً للفيضانات — وبديهي أن النسب التي أوردتها ظلت سارية على الأقل في الفترة الأولى من عصر سلاطين المماليك — وقد جعل للفيضان نهايتين وهما نهاية الضروري ونهاية الإفراط ، وبينهما بدايتين هما بداية الضروري وبداية الإفراط ؛ وتفصيل ذلك أن نهاية الضروري : هي الحد الأقصى للماء اللازم لرى البلاد وهي ثمانية عشر ذراعاً أما نهاية الإفراط : ومعناها الزيادة المفرطة إلى الحد الأقصى الذي تصل إليه مياه النهر وهي عشرون ذراعاً تصل في أحيان قليلة إلى إحدى وعشرين ذراعاً ، وأما ما أسماه بداية الإفراط : فهي ما قل عن نسبة الستة عشر ذراعاً وهي بداية الضرر الناتج عن نقص مياه الفيضان ، ويقول عبد اللطيف البغدادي إن الستة عشر ذراعاً هي « ماء السلطان » الذي عنده يستحق الحراج ، وتروى هذه النسبة نصف الأراضي الزراعية في مصر ، وتُغَيَّل ما يكفي أهل البلاد قوت عامهم في سعة ، ويتم رى باقى البلاد بما يزيد عن الستة عشر ذراعاً حتى إذا وصلت المياه إلى ثمانية عشر ذراعاً رويت كل الأراضي وأنتجت ما يكفي أهل البلاد سنتين فأكثر ، أما إذا نقصت مياه النهر عن الستة عشر ذراعاً فإنها لا تكفى لرى كل الأراضي ويقال حينئذ « أن البلاد شرقت »^(٢) .

ومهما يكن من أمر فقد ظلت هذه النسبة لمياه الفيضان — والتي تتفق إلى حد كبير مع ما أورده القلقشندي نقلاً عن المسعودي — تعبر عن واقع الأمر على الأقل حتى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وكان أهل ذلك الزمان يسمون الذراعين الثالثة عشر والرابعة عشر « منكراً ونكيراً » لأن الاستسقاء كان يحدث عندهما^(٣) وثمة

(١) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٧٦ ، المقرئزي : السلوك ج ٢ / ق ١ ص ٢٥٨ .

(٢) عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار : ص ١٠٥ — ١٠٧ ، (شرقت الأرض مشتقة من قوطم « شرقت الشمس » إذا طلعت وظهرت وشرقت اللحم إذا شررته ليحف ، ولما كانت الأرض تتعرض لأشعة الشمس إذا لم يغطيها النيل أبان الفيضان قيل شرقت الأرض ولم تنغط ولم يغطيها النيل : نفس المرجع ص ١٠٧) .

(٣) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٥٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٠ ، رحلة ابن بطوطة

تقسيم آخر لمناسيب الفيضان أورده القلقشندى يعبر عن مدى ملائمة مياه الفيضان في هذه المناسيب لحاجة الري والزراعة في أيامه (القرن التاسع الهجرى) إذ يقول :

فيضانات النيل أقسام ثلاثة وهى :

١ - متقاصرة : وهى ستة عشر ذراعاً فما حولها (أى أن مياه النهر عند هذا المنسوب تقصر عن رى جميع البلاد) .

٢ - متوسطة : وهى سبعة عشر ذراعاً فما حولها .

٣ - عالية : وهى ما فوق الثمانية عشر ، وربما زادت إلى العشرين .

ويقرر المؤرخ تقي الدين المقرئى (ت ٨٤٥هـ) أن السبعة عشر ذراعاً وما فوقها أصبح يخشى معها أن يحل الغلاء ويهلك الناس . بل أنه يقول إن الماء لم يكن يعم كل الأراضى إذا بلغ تسعة عشر ذراعاً فأكثر بعد بداية القرن التاسع الهجرى ، ويعزو ذلك إلى فساد الجسور وإهمالها^(١) ، ويتضح من كلام أحمد بن محمد المنوفى (ت ٩٣١هـ) أن بعض الأراضى لم تعد تروى من عشرين ذراعاً في القرن العاشر الهجرى (أواخر عصر المماليك)^(٢) .

وخلاصة القول أن الستة عشر ذراعاً - المعبر عنها « بماء السلطان » - ظلت علامة الوفاء طوال عصر سلاطين المماليك وذلك بالرغم من أنها لم تكن كافية لرى كل الأراضى الزراعية ، ومع مضى السنين أصبح الرقمان سبعة عشر ذراعاً ، وثمانية عشر ذراعاً رقمين عاديين ، بينما كان الرقمان خمسة عشر ذراعاً ، وثمانية عشر ذراعاً يمثلان النقطة الحرجة التى يصل إليها منسوب النيل هبوطاً أو ارتفاعاً ، بل أن بعض الأراضى لم تكن تروى إلا من أكثر من عشرين ذراعاً في أواخر ذلك العصر ، ويمكن إرجاع ذلك لسببين رئيسيين هما : (١) ارتفاع مستوى سطح الأرض على جانبي النهر نتيجة للتكوينات الرسوبية عن طمى النيل المجلوب سنوياً مع مياه الفيضان^(٣) (٢) فساد الجهاز الإدارى الذى أدى بدوره إلى إهمال مرافق الري والزراعة كالجسور

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٠٠ .

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٥٨ - ٦٠ .

(٣) المنوفى : الفيض الجديد ص ٤٠ (مخطوط) .

والترع والقناطر في الطور الأخير من ذلك العصر نتيجة لكثرة الفتن والإضرابات السياسية .

نظام الري والزراعة :

ننتقل بعد ذلك إلى مناقشة نظام الري ؛ فلم يكن النهر وقت الفيضان يغمر ضفتيه الحاليتين بالمياه ولكن هذه المياه كانت تصل إلى الحقول والمزارع القريبة من مجرى النهر والبعيدة عنه عبر نظام محكم من الترع والقنوات وحين يصل إلى قمة ارتفاعه يسارع المماليك إلى وضع الحراس على ضفتيه في جماعات عدد كل منها عشرة ممالك ولهم علم ومهمتهم حراسة المصائب المعروفة وفتحها لإدخال الماء إلى ريف البلاد^(١) ولم يكن يسمح لغيرهم بإحداث الفتحات في الترع لري الأرض . ولما كانت الأرض الزراعية في مصر يتباين سطحها ما بين عال لا تكفيه في الري الفيضانات العالية ، ومنخفض يروى من الزيادة اليسيرة فإن ري هذه الأرض كان يتم على مراحل أربع وهي كما يلي :

١ - عند وفاء النيل (تمام الزيادة ستة عشر ذراعاً) - ويحدث ذلك غالباً في شهر مسرى - يفتح سد خليج القاهرة حتى يجرى الماء فيه إلى حد معلوم ويقف حتى يروى كل الأراضي التي تحت هذا الحد .

٢ - وفي يوم النيروز (أول توت) يفتح الحد الثاني الذي وقفت عنده المياه ليروى الأراضي تحت هذا المنسوب وتسمى السدود التي تقطع في هذا اليوم باسم « النيروزية » .

٣ - وتأتي المرحلة الثالثة في « عيد الصليب » (بعد النيروز بسبعة عشر يوماً) فيجرى الماء إلى حد معين حتى يروى ما تحت هذا المنسوب من الأراضي .

٤ - وتكون المرحلة الرابعة والأخيرة حين تفتح سدود بقية الترع والخلجان التي تحت هذا المنسوب الأخير لمياه النهر وبذلك يتم ري بقية الأراضي الزراعية ،

ويسير النهر شمالاً بما تبقى من مياه الفيضان ليصبها في البحر المتوسط^(١) .

وفي وقت الفيضان بعد فتح سدود الترع والحلجان وفقاً للمراحل الأربع السابق ذكرها ، ينتشر ماء الفيضان ويغطي وجه الأرض التي تبدو آنذاك وكأنها بحر حقيقي تبدو القرى فيه كأنها جزر لا يمكن الوصول إليها والتنقل فيها بينها إلا بواسطة القوارب أو فوق ظهور الجواميس وفوق الجسور الممتدة ما بين أجزاء البلاد^(٢) وحينئذ يُنذر الحكام المنوبون بحراسة هذه السدود عن طريق علامات النيران ليلا فيسدون الفتحات التي أحدثوها من قبل ، وإذا تكامل رى ناحية من النواحي قطع أهلها الجسور المحيطة بها — لتصرف المياه الفائضة عن حاجة الرى — من أمكنة يعرفها خولة البلاد ومشايخها ويتم ذلك في أوقات يحددها^(٣) وحين تنصرف المياه عن وجه الأرض تنتشر المساحات السوداء الشاسعة على مرمى البصر تغطي آلاف الأفدنة وتترك الحقول هكذا حتى تقارب الجفاف ويستقر الطمي بما يحمله من عناصر الحصب والنماء وتحث الأرض وهي ما تزال رطبة لترى فيها البذور وتزرع بطريقة بدائية للغاية^(٤) ويحدثنا عبد اللطيف البغدادي بأن الأرض كلها تزرع ولا يراح منها شيء^(٥) . ومن الطبيعي أن هذه الملاحظة عن أحوال الزراعة في أواخر العصر الأيوبي تنسحب أيضاً على ما كان يحدث في عصر سلاطين المماليك .

ويتضح مما سبق أن الطريقة السائدة في الرى آنذاك كانت طريقة « رى الحياض » — وهي الطريقة التي ظلت سائدة حتى عصر محمد علي ثم قضى بناء السد العالي عليها تماماً وتحولت كل الأراضي الزراعية إلى نظام « الرى الدائم » — وبعد جنى المحصول تظل الأرض جافة وخالية في انتظار فيضان جديد يحمل إليها عناصر الحصب والنماء ، وليس معنى ذلك أن الزراعة في مصر لم تعرف نظام الرى الدائم في ذلك العصر ،

(١) المقریزی : الخطط ج ١ ص ٢٥ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) المقریزی : المرجع السابق نفس الجزء ص ٦٠ ، الكتبي : مباهج الفكر ج ١ ق ٢ ص ٨٦ ، النويري نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٤ ، Dopp : L'Egypte au Com, p. 21.

(٣) النويري : المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ، المقریزی نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٤) Enc. of Islam : Art Egypt.

(٥) عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ص ٣ .

فالواقع أن بعض الأراضي تمتعت بنظام الري الدائم وذلك لقربها من مجرى النهر أو فروعه مثال ذلك أرض الدلتا الواقعة بين فرعى النيل والتي كانت تروى عن طريق ألف ساقية كانت ترفع المياه لرى ريف الجزيرة طوال العام . وكانت هذه الجزيرة تمون القاهرة بحاجاتها من الخضروات والبقول^(١) .

وفي بعض الأحيان كانت الأرض تزرع قبل أوان الزرع فتفسد زراعتهم كما حدث سنة ٨٢١ هـ حين أسرع النيل بالهبوط فبادر الناس بالزرع قبل الأوان ففسدت المزروعات وأكلها الدود ، ونتج عن ذلك الغلاء^(٢) ويبدو أن الغلات والمزروعات كانت كثيرة لدرجة أن كثيرين من مؤرخي عصر سلاطين المماليك ذكروا أنه ليس هناك نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ، وكانت الأرض التي تزرع بطريقة رى الحياض تغل محصولاً واحداً من المزروعات التي عرفت باسم « المحاصيل الشتوية » ومن أهمها : القمح والفل ، والبصل . أما أراضي الري الدائم فكانت تنتج المحاصيل الصيفية وأهمها قصب السكر ، والقطن والبطيخ ، كذلك كانت الفواكه والخضروات والأزهار والرياحين تزرع في البساتين والحدائق التي انتشرت على ضفاف النيل في عصر سلاطين المماليك ، كما كان الأرز يزرع في بعض الأماكن التي تتوفر فيها مياه الري بكثرة مثل إقليم الفيوم ، وكانت الذرة تزرع في مصر العليا . وفي أراضي الري الدائم كان يمكن زراعة ثلاثة محاصيل وفقاً لتتابع زمني معين^(٣) .

وكانت كمية الضرائب تقدر تبعاً لحالة النهر ، وهي ما اصطلح على تسميته « بالخراج » الذي كان يدفع من ناتج الأرض الزراعية ، ولكن طريقة جباية الخراج لم تكن واحدة دائمة ، فبينما كان خراج الوجه القبلي يدفع عيناً من غلات الأرض في غالب الأحيان^(٤) ، كان خراج الوجه البحري نقدياً في معظم الأحوال ، ولما كان الخراج يجبي منذ الفتح الإسلامي لمصر . وفقاً للسنة القمرية العربية ، بينما كانت

(١) Dopp : L'Egypte au Com : p. 28, Ency. of Islam : Art Egypt.

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٤٦٣ - ٤٦٤ (مخطوط) .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٥٤ - ٣٥٥ : المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

Ency. of Islam : Art Al Nil.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

الأرض تغل محصولاتها وفقاً للسنة الشمسية القبطية ، وثمة اختلاف بين والتقويمين فقد تحتم إسقاط سنة قمرية (عربية) كاملة كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية ، إذ أن كل إثنتين وثلاثين سنة شمسية متتابة تساوى ثلاث وثلاثين سنة قمرية تقريباً ، ولكن هذه المعادلة لم تكن تسبب خسارة أو مكسباً لطرف ما إذ كانت هذه العملية تتم على الورق فقط ، وعرفت هذه العملية باسم « تحويل السنة »^(١).

الجسور والترع والقناطر :

من المسلم به أن نظام الري الذى عرفته مصر فى عصر سلاطين المماليك لم يكن من ابتكار أبناء ذلك العصر ، وإنما هو متوارث عن أجيال المصريين التى سكنت الوادى من ناحية وهى نتاج دراما التاريخ المصرى التى يمكن اختزالها فى صيغة صراع ملحمى بين المصرى والنهر من ناحية أخرى ، وكانت زراعة الري الحوضى انبثاقاً طبيعياً جعلت من الفلاح المصرى مهندساً جغرافياً أعاد تشكيل طبيعة بلاده وجعل من شبكة السدود والترع طبيعة ثانية للوادى^(٢) وقد بدأت شبكة السدود والقناطر والترع فى شكلها الجينى منذ بدأ الإنسان المصرى محاولات ترويض النهر وتطويره وتطورت تلك الشبكة من وسائل ضبط النهر لتتخذ ذلك الشكل الذى عرفته البلاد فى عصر سلاطين المماليك . وثمة حقيقة أدركها كل من عاش على أرض مصر أو جاور ساكنيها أو خالطهم ، مؤداها أنه حين تتسم محاولات ضبط النهر بالكفاءة ينعكس ذلك على الوادى بالاتساع وغزو الصحراء والبور والبرارى ، أما حين يفشل ضبط النهر يكون تراجع الحضرة أمام رمال الصحراء ومياه البحر المالح ، وذلك دليل على أن النهر الخالد كان ضابط إيقاع جوهرى للعمران فى مصر الفيضية . وحين فتح « عمرو بن العاص » مصر أدرك هذه الحقيقة ولخصها فى رسالته لأمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » التى جاء فيها « . . لا يستأدى خراج ثمارها إلا فى أوانها وأن يصرف ثلث خراجها فى جسورها وتراعها فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال^(٣) ».

وقد أدرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة أيضاً ، واهتموا بضبط مياه النهر

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ . Ency. of Islam : Art Egypt.

(٢) جمال حمدان : شخصية مصر ص ١٦٤ (طبعة دار الهلال ١٩٦٧) .

(٣) الحجازى : نيل الرائد ص ١٠ (مخطوط) .

— باعتبارها ثروة قومية — اهتماماً تفاوت بين سلطان وآخر (ولكننا يجب أن ندرك أن اهتمامهم بأمر مياه النيل كان لزيادة غلة إقطاعاتهم التي استأثروا بغالب نتاجها ، كما احتكروا الأقوات والأغلال بينما عاش غالبية أبناء الشعب ، الفلاحون في القرى والعامّة في المدن ، حياة دون المستوى الآدمي) . وفي زراعة الري لا غنى عن تدخل الحكومة وسيطاً بين الفلاح والنهر إذ لا بد من ضبط الناس وبذلك لا تصبح الطبيعة وحدها متمثلة في النهر سيدة الفلاح المصري ، وإنما يضيف الري سيداً آخر هو الحاكم^(١) .

وعلى كل حال فإن مؤرخي عصر سلاطين المماليك كانوا يعددون المنشآت الخاصة بضبط النهر والتحكم في مياهه باعتبارها من مآثر السلطان الذي أنشأها إلا أن ذلك لا ينسحب على كل السلاطين فقد تعرضت هذه المرافق للإهمال في الفترات التي يكون السلطان فيها ضعيفاً ، وفي أوقات الفتن والمنازعات الداخلية .

وأول هذه المنشآت للتحكم في مياه النهر الجسر «وجمعه جسور» وهو عبارة عن سد تراعى مبنى على حافة النهر أو التربة يحفظ الماء من أن يفيض على ضفتيه ويغرق البلاد المحيطة ، وتستمر هذه الجسور في حجز مياه الفيضان كي يُستفاد منها في عمليات الري ، وحتى ينصرف النيل ويزول الخوف من خطر الفيضان العالى^(٢) وانقسمت جسور النيل في عصر سلاطين المماليك إلى قسمين هما :

١ — الجسور السلطانية .

٣ — الجسور البلدية^(٣) .

أما الجسور السلطانية : فهي تلك الجسور التي يعم نفعها كل الأرض الزراعية المصرية في أنحاء البلاد ، ولذا كانت تشيد وتم صيانتها من الديوان السلطاني ، ولها رسوم مقررة على البلاد المصرية في شكل جراريث ومحاريث وأبقار مرتبة على غالب

(١) جمال حمدان : شخصية مصر ص ٤٩ - ٥١ .

(٢) ابن ماق : قوانين الدواوين ص ٢٣٢ ، المقرئزي : السلوك ج ١/ق ص ٦٣٩ (حاشية للأستاذ الدكتور زيادة) المخطط ج ١ ص ٦٠ .

(٣) ابن ماق : المرجع السابق ص ٢٣٢ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

البلاد المصرية^(١) وكانت الدولة — ممثلة في السلطان على رأس جهازها — مسئولة عن إقامة وصيانة هذا النوع من الجسور لما كان لها من صفة جامعة ، وأهميتها في رى البلاد ، وكان مستخدمو الديوان — كما يذكر ابن ممتى في قوانين الدواوين — يقومون بتحصيل ضرائب سنوية يخصص دخلها الأعمال صيانة هذه الجسور فينفق من حصيلة هذه الضرائب ما يقتضى صرفه في هذا الصدد ويحصل الباقي إلى بيت المال^(٢) . وقد وصفت الجسور السلطانية بأنها بمثابة السور المحيط بالمدينة (هكذا كان شكل مدن العصور الوسطى في الغالب) وعلى السلطان أن يهتم بهذا السور ويكفى الرعية أمر التفكير فيه . وكان لهذه الجسور السلطانية كاتب خاص مقرر في ديوانه ما على كل بلد من الأبقار والحراري^(٣) .

والقسم الثاني من هذه الجسور هي الجسور البلدية : وكان أهل القرى والنواحي يلتزمون ببنائها وصيانتها ذلك أن نفع الجسر منها كان يقتصر على ناحية دون أخرى ، ومن ثم فقد كانت مسئولية إنشائها تقع على عاتق المقطعين من الأمراء والأجناد وغيرهم من الفلاحين من الأموال الجارية في قطاعاتهم^(٤) وقد وصفت هذه الجسور البلدية بأنها تماثل الدور الواقعة داخل نطاق سور المدينة (الجسور السلطانية) وبطبيعة الحال فإن كل صاحب دار من هذه الدور مسئول عن صيانتها داره وحمايتها . ويمكن أن نضيف إلى هذا التقسيم تقسيماً آخر ، وهو أنه كانت هناك جسور دائمة ، وأخرى تنشأ لمواجهة الطوارئ وحالات طغيان مياه النهر وغرق البلاد ، أو جفاف مياه النهر تجاه ساحل القاهرة ومن ثم يلزم إنشاء جسر يحول المياه من ساحل البحيرة إلى ساحل القاهرة ، وكانت هذه الجسور تظل قائمة حتى مجيء الفيضان فتجرفها المياه وتتجدد عند الحاجة إليها^(٥) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٥٢ ، ابن ممتى : قوانين الدواوين ص ٢٣٢
الحراري هي التي يجرف بها التراب ويكوم لإقامة الجسور (ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٩) .

(٢) ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٣ - ٢٣٣ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٥٢ .

(٤) ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٣٢ ، ابن شاهين الظاهري زبدة كشف الممالك ص ١٢٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٥٢ .

Quatremere : Histoire de Sultans Mamluke : vol 2, pp : 152 - 153.

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ١٣٠ ، المقرئ : السلوك ج ٢/٢ ص ٧٠٤ .

وعلى كل حال فإن أمر صيانة هذه الجسور — سلطانية كانت أم بلدية — كانت مسألة حيوية لضبط النهر وحفظ البلاد إبان الفيضان « . . . لئلا تقطعها المياه فتصير البلاد باثرة . . . »^(١) ، وكانت صيانة هذه الجسور تتم عن طريق دعمها المستمر بالتراب والشقاف ، وتثبيتها باللش (جمع لبشة وهي حزم القش وسيقان النبات اللين) والمداومة على ذلك حتى يزول الخوف من خطر الفيضان^(٢).

وجرت العادة في عصر سلاطين المماليك أن يعين السلطان لكل عمل من أعمال البلاد أميراً في كل عام لكشف جسورها أى لصيانتها وتجديد ما قد يكون تهدم منها وكان هذا الأمير يسمى « كاشف الجسور »^(٣) أحياناً « وكاشف التراب »^(٤) أحياناً أخرى ربما لأن التراب كان هو المادة الرئيسية المستخدمة في بناء الجسور آنذاك ، وكان هؤلاء الكشافون يعينون من بين مقدمى الألوف ، ويكون خروجهم لكشف جسور البلاد في فصل الربيع وربما يتولى أحد الأمراء كشف جسور بلد ما بجانب ولايتها فيقال « وإلى فلانه وكاشف جسورها . . . »^(٥) . وتطورت وظيفة كاشف الجسور على مر السنين فبعد أن كان عدد كشاف الجسور ثلاثة فقط زاد عددهم ربما إلى الضعف وأكثر . وفي بداية الأمر كان كشاف الجسور الثلاثة موزعين على هذا النحو : كاشف الوجه القبلى : وله الولاء من الجيزة حتى الجنادل ويولى من تحت أمره سبعة ولاه بالوجه القبلى . وكاشف الوجه البحرى : ويولى من تحت أمره سبعة ولاه على أقاليم الوجه البحرى من مقدمى الألوف وكاشف الجيزة : وهو تارة من المقدمين وتارة أخرى من الطبائخانات^(٦) ثم تطور الأمر ليصبح كشاف الوجه القبلى وحده ثلاثة كشاف في بعض الأحيان أحدهم بالصعيد الأعلى ، والثانى بالصعيد الأدنى ، والثالث بإقليم الفيوم ، وأحياناً

(١) ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك : ١٢٩ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٥٢ .

(٤) ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٢٩ ، ابن زنبيل آخرة المماليك ص ٧ من المقدمة ،

العيني عقد الجمان ج ٢ ص ٦٦٠ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٥٢ .

(٦) الطبائخانات هنا جمع أمير طبائخاناه وهو الذى يدق على بابه ثلاثة أحمال طبول ونفيران في بداية

عصر المماليك ثم أصبحت طبلان وزمران (سعيد عاشور : المجتمع المصرى في عصر السلاطين المماليك ص ١٨ ط . أول) .

يكون للوجه البحرى كاشفان : أحدهما بالشرقية ، والآخر بالغربية^(١) ويبدو أن تعدد كشاف الجسور على هذا النحو قد أدى ذلك إلى عدم انضباط أعمال صيانة الجسور وعمارتها نتيجة لفقدانهم سطوتهم ومهابتهم « . . . فإنهم كانوا فى غاية الأبهة . . . »^(٢) كما أدى ذلك إلى ضياع حقوق الرعية نتيجة لعدم نفاذ كلمة الكشاف وازدواج تبعية الولاة بين الكاشف والاستادار^(٣) ونخرج من تتبعنا لوظيفة « كاشف الجسور » بنتيجة هامة هى أن مرتبة الأمراء الذين تولوا هذه الوظائف ومن كان يتبعهم من موظفى الدول الآخرين كالولاة تشير جميعها إلى مدى العناية التى وليت لأعمال ضبط النهر ولا غرابة فى ذلك فالنيل هو مصر ، فهو يعوض ذلك النقص الصارخ فى كمية المطر بالبلاد ولولاه لأصبحت مصر من أجذب مناطق العالم^(٤) .

وثمة وظائف مؤقتة كانت تنشأ أحيانا أثناء العمل فى بناء أحد الجسور أو شق أحد الخللجان وتزول بانتهاء العمل . فقد ذكر المؤرخ تقي الدين المقرئى فى حوادث سنة ٨٧٤٩ حين بدأ العمل فى بناء جسر لمعالجة جفاف المياه تجاه ساحل القاهرة (كان الأمير منجك اليوسفى مسئولاً عن إنجاز هذا العمل) أنه عمل لكل جهة شاد وكاتب وعدة أعوان من الرسل وصيرفى كانت مهمتهم جمع الأموال التى قررت على الناس والخوانيت والبساتين والسواقى وغيرها لتغطية تكاليف بناء الجسر^(٥) ونسمع فى أواخر عصر سلاطين المماليك (القرن العاشر الهجرى وأوائل القرن السادس عشر الميلادى عن تعيين بعض أولاد الناس (أى أبناء المماليك ولكن لم يمسهم الرق) لحفظ الجسور^(٦) هذا عن الجسور القائمة فعلا والتى كان يجب ترميمها سنوياً ، ولكن ثمة من

(١) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك : ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣) الاستادار : وظيفة من أرباب السيوف يكون صاحبها مسئولاً عن شئون بيوت السلطان وله مطلق التصرف فى الإنفاق على كل من فى بيت السلطان (سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٨٩) ويبدو أن اختصاصاته قد تطورت بعد ذلك لتشمل أشياء أخرى كما يتضح من كلام ابن شاهين الظاهرى (زبدة كشف الممالك ص ١٢٩ - ١٣٠) وكان الولاة يتبعونه أحيانا .

Ency. of Islam : Art Al Nil.

(٤)

(٥) المقرئى : السلوك ج ٢ / ق ٢ ص ٧٦١ - ٧٦٦ .

(٦) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٨٢ (نشر محمد مصطفى) .

الجسور ما كان ينشأ لضرورة طارئة لمواجهة خطر داهم ، أو ليكون طريقاً يربط بين أنحاء البلاد استجابة لضرورة عسكرية ، أو لتحويل مياه النهر نحو ساحل القاهرة ليتمكن للناس استخدامه للشرب ، وفي مثل هذه الأحوال يعين السلطان واحداً من كبار الأمراء ليكون « شاد العمل » أى المشرف على إنجازهِ ، وفي أحيان كثيرة كان السلطان ينزل بنفسه ليشرّف على سير العمل وربما شارك فيه والأمثلة على ذلك كثيرة ، ففي سنة ٧٣٨هـ نزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون بنفسه ليشرّف على سير العمل فى أحد الجسور عدة مرات ، وكان فى كل مرة « . . . يهين اقبعاً - المسئول عن العمل - ويسبه ويستحثه حتى تم العمل »^(١) . كذلك سار السلطان الناصر محمد ابن قلاوون بنفسه سنة ٧٣٧هـ لبناء جسر شبين اتقاء لخطر شراقى بعض البلاد نتيجة لتهدم جسر شبين^(٢) .

وكانت بعض الجسور تنشأ لأغراض عسكرية صرفة مثل ذلك الجسر الذى أنشأه السلطان الظاهر بيبرس ليربط بين الجيزة والروضة من ناحية ، وبين الروضة والقاهرة من ناحية أخرى ، وكان هذا الجسر من النوع المؤقت مبنى من الخشب لتعبر عليه الجنود^(٣) ومثال آخر هو ذلك الجسر الذى امتد من قليوب حتى دمياط ، وكان سبب بنائه وورود الأخبار بأن صاحب قبرس قد اتفق مع ملوك الفرنج على غزو دمياط ، وتم بناء هذا الجسر سنة ٧٠٨هـ حتى إذا تحرك الفرنج وقت الفيضان وجد الجنود طريقاً للوصول إلى دمياط وإلا تعذر الدفاع عنها بغير هذا الجسر^(٤) .

أما طريقة بناء هذه الجسور فالطريقة الشائعة آنذاك - كما يتضح من إشارات المؤرخين - هى تغريق المراكب المشحونة بالحجارة فى المكان المراد بناء جسم الجسر فوقه ، ثم يتوالى بعد ذلك ردم المكان بالتراب والأخشاب والشقف وما إلى ذلك ، كما كانت الحلفاء والحبس والجحير تستخدم فى بناء جسم السد أو الجسر ، وحين يتم ذلك يصير جسم

(١) المقرئزى : الخطط ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٣) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ حوادث سنة ٦٥٨هـ ، السيوطى : كوكب الروضة

ص ٣٨ (مخطوط) ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١١٠ .

(٤) المقرئزى : الخطط ج ٢ ص ١٦٩ ، السلوك ج ٢/ق ١ ص ٤٩ .

السند بارزاً ويصبح بمثابة طريق يستخدم للسفر والربط بين أجزاء البلاد أثناء الفيضان^(١) ولكن أمر العناية بالجسور لم يستمر بنفس الحماسة طوال العصر المماليكى ففى المراجع المعاصرة كثير من شكاوى المؤرخين من إهمال الجسور لا سيما فى الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك إذ أضحت الحكومة فاسدة ولا نفوذ لها ، ففى سنة ٧١٧هـ غرقت عدة مواضع نتيجة عدم الاعتناء بالجسور على حد تعبير المقرئى^(٢) كذلك حدث سنة ٧٥٠هـ أن باع الولاة الجراريف المستخدمة فى صيانة الجسور وأهملوا الجسور فخربت النواحي وامتد أذاهم ليلحق بالفلاحين^(٣) . كما أن القلقشندى (ت ٨٢١هـ) يذكر أن الاهتمام بأمر الجسور قد قل فى عصره وأهملت عمارة أكثر الجسور البلدية واقتصرت فى عمارة الجسور السلطانية على الشيء اليسير « . . . الذى لا يحصل به كبير نفع ، ولولا ما من الله به على العباد من كثير الزيادة فى النيل من حيث أنه صار يجاوز تسعة عشر ذراعاً فما فوقها حتى يجاوز العشرين لفات رى أكثر البلاد وتعطلت زراعاتها . . . »^(٤) . ويفسر هذا ما ورد ببعض المصادر من أن بعض المسئولين عن كشف الجسور كان يستعفى أو يستقيل على حد تعبيرنا المعاصر كما حدث سنة ٨٣٨هـ حين استعفى الوزير من ضبط الجسور « لقلّة المصروف »^(٥) . ويعلل أحمد بن محمد المنوفى (ت ٩٣١هـ) سوء الحال الذى وصل إليه أمر الجسور أواخر عصر سلاطين المماليك بقوله « . . . تهدم فى زماننا الجسور ، وتحكم الفساد ، وخربت البلاد ووسد الأمر إلى غير أهله ، ووضع الشيء فى غير محله ، ولا جرم أن حل بالناس ما حل ، وانقرط نظام المملكة وانحل . . . »^(٦) . ونخلص من هذه الأمثلة وكثير غيرها فى مؤلفات ذلك العصر بنتيجة هامة مؤداها أنه طالما كانت الحكومة قوية انعكس ذلك على مدى النجاح فى مرافق ضبط النهر والعكس صحيح تماماً .

(١) العيى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٤٩هـ (مخطوط) المقرئى : السلوك ج ١/ق ، ص ٣٧٤ ، ج ٢/ق ص ٤٧٣ ، الخطط ج ٢ ص ١٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ١٣٠ ، ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٠١ (مخطوط) وانظر كذلك . Quatremère, (Vol 1), p. 19.

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢/ق ١ ص ١٧١ - ١٧٣ .

(٣) المرجع السابق ج ٢/ق ٣ ص ٨١١ .

(٤) القلقشندى صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٥٢ .

(٥) ابن حجر : إنباء الغمر ج ٢ ص ٢٧٧ (مخطوط) .

(٦) المنوفى : الفيض المديد : ص ٤٨ - ٤٩ (مخطوط) .

نتقل بعد ذلك إلى الترع والقنوات أو الخلجان^(١) - كما دأبت مؤلفات عصر المماليك على تسميتها- وقد عدد المقریزی أهم خلجان مصر في زمنه على النحو التالي^(٢):

(١) خليج منف (٢) خليج منجا (٣) خليج المنهي (ينسب حفره إلى يوسف عليه السلام وهو بحر يوسف الحالي الذي يجري إلى إقليم الفيوم) . (٤) خليج اشموم طنّاح (٥) خليج سردوس (٦) خليج الإسكندرية (٧) خليج دميّاط . (٨) بحر أبي المنجا ، والخلجان التي بظاهر القاهرة هي (١) خليج القاهرة (٢) خليج فم الحور (٣) خليج فم الذكر (٤) خليج قنطرة الفخر .

ولم تكن هذه الخلجان أو الترع التي ذكرناها آنفاً تمثل - بطبيعة الحال - كل شبكة الري المصرية في ذلك العصر ، فقد كانت هناك شبكة هائلة من الترع والسدود والقناطر والمصارف تغطي البلاد وفقاً لنظام محكم ، وإن تركز غالبها في الوجه البحري بحكم طبيعة أرضه المنبسطة والمترامية الأطراف ، ومهما يكن من أمر فإن ما يعيننا في هذا المقام هو أهم ما حفر وجدد حفره من الخلجان في عصر سلاطين المماليك .

خليج الإسكندرية : أنشئ هذا الخليج عام ٣٣١ ق . م مواكباً لإنشاء مدينة الإسكندرية ليمدها بالمياه من فرع النيل الكانوبي وقد تغير موضعه خمس مرات^(٣) . وتجدد حفر هذا الخليج مرات ثلاث على الأقل في عصر سلاطين المماليك كانت أولاها سنة ٦٦٤ هـ في عهد السلطان الظاهر بيبرس حين انسدت فوهه بالرمال ، وقل الماء بالإسكندرية وباشّر الحفر فيه بنفسه حتى أجرى الماء^(٤) . وكانت المرة الثانية في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية سنة ٧١٠ هـ وفي هذه المرة ثم تنظيف مجرى الخليج حتى جرى الماء فيه ودخلته السفن بالغلال والمتاجر ، واستجدت عليه عدة سواقي وبساتين وعمرت قرية « الناصرية » نسبة إلى الناصر محمد نفسه وسكن ضفتيه حوالي مائة ألف

(١) الخلجان ومفردها خليج : وهو النهر الصغير يختلج من نهر كبير أو بحر وأصل الخليج الانتزاع ، خلجت الشيء منه أي انتزعه (المقریزی : الخطط ج ٢ ص ١٣٨) .

(٢) المقریزی الخطط ج ١ ص ٦٩ وقد جاء عدد خلجان مصر في عدة مراجع أخرى غير الخطط المقریزية . لكن أكثرها تفصيلاً وبالتالي دقة الخطط المقریزية ، ومن ثم فقد اعتمدنا عليه في هذا الصدد .

(٣) عمر طوسون : تاريخ خليج الإسكندرية ص ٤ - ١٦ .

(٤) المقریزی : الخطط ج ١ ص ١٧٠ . السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥١٠ ، العيني : عقد الجمان

حوادث سنة ٦٦٤ هـ (مخطوط) .

نسمة^(١) وحفر للمرة الثالثة في عهد السلطان الاشرف برسباي سنة ٨٢٦هـ^(٢) .

خليج مصر أو القاهرة : يبدو أنه هو نفسه القناة التي حفرت في عهد الفراعنة لتصل النيل بالبحر الأحمر ، وعرفت باسم « قناة سيزوستريس » ، وتجدد حفرها عدة مرات آخرها على يد عمرو بن العاص في عام الرمادة بناء على طلب الخليفة عمر بن الخطاب ليرسل عن طريقها مدداً من الأقوات إلى المدينة المنورة ، وقد ظلت هذه القناة (الخليج) مستخدمة لتصل بين النهر والبحر الأحمر حتى أمر الخليفة جعفر المنصور بسدها من ناحية البحر الأحمر حتى لا تحمل الإمدادات إلى المدينة المنورة ومنذ ذلك الحين انقطع جرى ذلك الخليج إلى البحر الأحمر ، وصار ماؤه يجري في السباخ^(٣) (الأرض التي لا تصلح للزراعة) . وقد عرف هذا الخليج بعدة أسماء منها « خليج مصر أو الخليج الكبير » « وخليج القاهرة » الذي أطلق عليه حين بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة ، ولما مر « الخليفة عمر بن الخطاب » بتجديد حفره صار يعرف باسم « خليج أمير المؤمنين » وفي زمن المقرئزي (القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي) عرفه الناس باسم « الخليج الحاكى » و « خليج اللؤلؤة » . هذا الخليج هو الذي كان يكسر سده يوم الوفاء^(٤) .

خليج المنهى : وهو فرع من فروع النيل يخرج الآن من ترعة الإبراهيمية ليصب في منخفض الفيوم وفيما مضى كان يخرج من النيل مباشرة قرب ديروط^(٥) . وينسب حفر هذا الخليج إلى سيدنا يوسف عليه السلام^(٦) . ولعل هذا هو سر تسميته ببحر يوسف حتى أيامنا هذه . وفي عصر سلاطين المماليك كان يخرج من نهر النيل قرب ديروط إلى إقليم الفيوم عبر إقليم الأشمونين والبهنسا يمتد طوله حوالى ٢٧٢ ميلا منذ

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٧٨ - ١٧٩ ، المقرئزي الخطط ج ١ ص ١٧٠ ، السلوك ج ٢/٢ ص ٥٣٨ - ٥٤٢ . Muir (W.) : The Mameluke : pp. 89 - 90 .
- (٢) ابن أباس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٧ (ط . بولاق) .
- (٣) المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .
- (٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠١ - ٣٠٥ .
- (٥) محمد عوض محمد : نهر النيل : ص ١٣٩ (الطبعة الخامسة) .
- (٦) النابلس : إقليم الفيوم ص ٦ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠١ - ٣٠٥ .
- النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٤ .

خروجه من النهر حتى دخوله إقليم الفيوم^(١) وفي نهاية قنطرة أو سد عرف باسم « اللاهون » وهو بناء من الحجر والرصاص والحديد لمنع المياه من التسرب في المنخفض الصحراوي القريب وكان هذا الخليج يحف ماؤه أربعة أشهر ويجرى ثمانية ، وكان توفير المياه لمنخفض الفيوم مشكلة تقض مضاجع حكام مصر ويتحدث أبو عثمان النابلسي عن بعض المحاولات لزيادة مياه هذا الخليج - قبل عصر المماليك - فقد حاول أحد الحكام زيادة مياه النهر بأن قطع الأشجار الحافة بشاطئيه من صفت وصفصاف ، وحاول نفس الحاكم مرة أخرى زيادة المياه بتعليق مبنى اللاهون (القنطرة) وفشلت هذه المحاولة أيضاً^(٢) وكان إغلاق الخليج عند قنطرة اللاهون يتم عن طريق بوابة كانت تسمى القطعة وهي عبارة عن جذع نخلة عليها زيادات من القش والألياف والحبال حتى يصير سمكها عظيماً ، وتربط من طرفيها بحبال يتم تحريكها بواسطة حبال يمسك بها الواقفون على ضفتي « الخليج » بمساعدة المياه حتى تسد الفتحة ، وتخرج من هذا الخليج عدة ترع لرى البلاد التي بإقليم الفيوم وكانت مداخلها تسد عند هبوط نهر النيل^(٣) .

الخليج الناصري : بدأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون في حفره سنة ٧٢٥هـ ليمر من خارج القاهرة إلى سرياقوس حيث بنى السلطان قصوره ونقل الميدان من تحت القلعة إلى هناك ، وذلك حتى يمكن للمراكب أن تحمل فيه الغلال إلى قصور السلطان بسرياقوس ، واستمر العمل فيه شهرين ، لما تم حفره سكن الناس شاطئيه وعمرت ضفتاه بالمزارع والحقول والبساتين والمساكن ، وتنافس الناس في السكنى هناك ، وأنشأوا المساجد والحمامات والأسواق « ... وصار هذا الخليج مواطن أفرح ، ومنازل هو ، ومغنى صبايات ، وملعب أتراب ... »^(٤) .

القناطر : عدد المقریزی أهم قناطر مصر في زمنه على النحو التالي : قناطر الخليج الكبير أربع عشرة قنطرة ، وقنطرة على كل من خليج فم الخور ، وخليج الذكر ، وعلى الخليج الناصري خمس قناطر ، وبالجزيرة وبلادها عدة قناطر ، وعلى بحر أبي المنجا

Ency. of Islam : Art Al Nil.

(١)

(٢) النابلسي : تاريخ الفيوم ص ١٠ - ١٢ .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) المقریزی : السلوك ج ٢/ق ١ ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، الخطط ج ٢ ص ١٤٤ - ١٥٠ .

قنطرة وصفها المقریزی بأنها أعظم قناطر مصر وأكبرها ، وقد أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ^(١) وكانت القناطر تبنى من الحجارة وتدعم أساساتها بالرصاص والكلس ، وكانت بعض هذه القناطر من الضخامة بحيث تسمح بمرور المراكب من تحتها^(٢) . وكانت تسبق هذه الإنشاءات بعض الأعمال التمهيدية مثل المناقشات الهندسية التي كانت تدور أثناء معاينة مكان حفر الخليج أو بناء السد أو القنطرة ، وكثيراً ما شارك بعض السلاطين بأنفسهم في هذه المناقشات ويقدمون الاقتراحات ، وقد اشتهر « السلطان الناصر محمد بن قلاوون » في هذا الصدد بأن « . . . له بصر جيد وحدث صحيح^(٣) » مثال ذلك ما حدث سنة ٧٢٥هـ إذ أراد الأمير « سيف الدين أرغون » نائب السلطنة ومعه المهندسون وأرباب الخبرة في مسح الشطوط بمسح شاطئ النيل بقصد اختيار المكان الذي يبدأ منه حفر الخليج الناصري^(٤) كما ركب « السلطان الملك الكامل شعبان » سنة ٧٤٦هـ « . . . ومعه الأمراء وكثير من أرباب الهندسة وخبراء شطوط النيل لكشف المكان المناسب لبناء جسر يدفع الماء ناحية ساحل القاهرة^(٥) . . . » وفي حوادث سنة ٧٢٨هـ أورد لنا المؤرخ « أبو المحاسن بن تغرى بردى » مناقشة هندسية من هذا النوع إذ أراد « السلطان » الناصر محمد بن قلاوون « أن يجرى النيل تحت القلعة عن طريق ترعة أو قناة يشقها من تجاه حاوان ، ولكنه بعد مناقشات طويلة مع الأمراء والمهندسين وأرباب الخبرة عدل عن هذا المشروع لصعوبة تنفيذه^(٦) وكانت هذه المناقشات مجالا يشترك فيه مهندسو الديار المصرية والشامية والعراق أيضاً في بعض الأحيان^(٧) .

تمويل أعمال ضبط النهر (الجسور . الخلدجان . القناطر) :

وكان المفروض أن تمويل أعمال ضبط النهر — ما بين إقامة الجسور ، وشق الترع ، وبناء القناطر — من الخراج أى من بيت المال « فيجب إنفاق ربع حصيلة الخراج

(١) المقریزی : الخطط ج ٢ ص ١٤٥ — ١٥٠ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢١٧ .

(٣) المقریزی : الخطط ج ٢ ص ١٤٤ ، السلوك ج ٢/٣ ص ٧٦١ ، ٧٦٦ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ١٣٠ (ط دار الكتب) .

(٥) المقریزی : السلوك ج ٢/٣ ص ٧٠٤ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٩٠ — ٩١ .

(٧) المقریزی : الخطط ج ٢ ص ١٦٦ ، السلوك ج ٢/٣ ص ٤٥٠ .

على الجسور إذا عملت كما ينبغي^(١) . . . » وكان المفروض أيضاً أن عمارة الجسور السلطانية تتم من أموال الديوان السلطاني في عصر سلاطين المماليك ، لكن إشارات كثيرة ومتواترة في مؤلفات ذلك العصر تدل بوضوح على أن مصادر تمويل هذه الأعمال كانت هي الرعية نفسها في كثير من الأحوال خاصة إذا كان هناك مشروع لإنشاء جسر جديد ، ولكننا - من ناحية أخرى - نسمع في أحيان قليلة أن أحد أمراء المماليك قد شيد جسراً ، أو حفر خليجاً أو بنى قنطرة من ماله الخاص ، ونستدل على صحة هذا الكلام بما حدث سنة ٧٤٩هـ حين تقرر بناء جسر يدفع الماء تجاه ساحل القاهرة بعد أن كان قد تحول إلى ساحل البحيزة وبولاق ، وارتفعت أسعار روايا الماء ووجد الناس مشقة في الحصول على مياه الشرب . وكان المسئول عن إنجاز هذا العمل الأمير منجك اليوسفي بتكليف من « السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون » . وتقرر تحصيل الأموال اللازمة للإنفاق على بناء هذا الجسر من الأمراء والأجناد والكتاب وأصحاب الأملاك . . . وسائر الناس . . . » ، وكتبت أوراق بأسماء الأجناد والأمراء فيها مقدار إقطاع كل منهم ، وفرض على كل مبلغ يناسب إقطاعه ، وفرضت « المغارم » على الحوانيت والدور والبساتين وحجارة الطحانين ، وصهاريج الماء بالقرب والمدارس بالقاهرة ومصر . . . ولم يبق رجل ولا امرأة حتى جبوا منه . . . » بل إن بعض الوظائف المؤقتة أنشئت آنذاك لتحصيل الأموال المقررة لبناء الجسر ، فقد عين لكل جهة من الجهات شاد وكاتب وعدة أعوان من الرسل وصيرفي ، وقد صحبت تحصيل هذه « المغارم » مظالم عديدة لدرجة أن الشخص الذي كان يفرض عليه درهمان كان يفرض عشرة دراهم ذلك لأنه يدفع ما عليه عدة مرات ، ثم يدفع بعد ذلك للشهود^(٢) ليشهدوا أنه أدى ما عليه ورغم أن ما تحصل من ذلك بلغ نحواً من ثلاثمائة ألف دينار - وهو مبلغ ضخم بمعايير ذلك العصر - إلا أن المشروع فشل تماماً فقبض على منجك وصودرت أمواله^(٣) . وفي سنة ٨٢٢هـ عملت قناطر شبين وبلغ جملة ما أنفق عليها

(١) المقریزی : السلوك ج ١/ق ٢ ص ٦٣٩ (حاشية للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زياده) .
(٢) في عصر سلاطين المماليك احتفظ كل قاض بعدد من النواب يجلسون بحوانيت الشهود أو الشوارع للتكسب من تحملهم الشهادات وكان هؤلاء الشهود يتعرفون أحوال الناس ويشهدون في القضايا ولهم حوانيت معلومة فإذا احتاج المتقاضون إلى شاهد أحضروه للشهادة مقابل أجر معين (سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ١٥٨) .

(٣) المقریزی : السلوك ج ٢/ق ٣ ص ٧٦٦/٧٦١ ، الخطط ج ٢ ص ١٦٧ ، ابن أبياس بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٩٠ (ط. بولاق) ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٨٧٤٩ (مخطوط) .
النيل والمجتمع المصري

خمسة آلاف دينار جمعت من بلاد الحيزة « ... وحتى من الرزق والإقطاعات .. »^(١) والأمثلة على ذلك كثيرة ومتواترة في المراجع ولا سيما في الدور الأخير من ذلك العصر^(٢) . وفي بعض الأحيان كان السلطان يخصص وفقاً معيناً للإتفاق منه على عمارة أحد الجسور كما فعل السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ^(٣) . وكان بعض الأمراء ينشئ الجسر أو القنطرة من ماله الخاص « ... دون أن يلزم أحد بغرامة درهم فما فوقه . . » كما فعل الأمير « بكتوت الخازندار » سنة ٧١٠هـ^(٤) والأمير جركس الخليلي سنة ٧٨٤هـ^(٥) ويبدو أن مبدأ تعويض أصحاب الأملاك التي يتم الاستيلاء عليها بسبب بناء جسر ما أو حفر خليج كان موجوداً على الأقل في بعض الأحيان ؛ فقد ذكر المقرئ في حوادث سنة ٧٢٥هـ « أنه لما بدأ العمل في حفر الخليج الناصري سنة ٧٢٥هـ بدأ هدم الأملاك الموجودة في المنطقة » . . ورسم بأن يعطى أرباب الأملاك أثمانها فمنهم من باع ملكه وأخذ ثمنه من مال السلطان ، ومنهم من هدم داره ونقل أنقاضها^(٦) .

⊕ أما العمال والفعلة الذين على عاتقهم كانت تقع مهمة إنجاز هذه المشروعات ، فغالباً ما كانوا يجمعون من القرى والشوارع والأسواق لتسخيرهم في هذه الأعمال ، وكانوا عرضة لكل ضروب الظلم والامتهان وما إلى ذلك من أشكال التسخير والإجاعة والإرهاق ، فضلاً عن إنقاص أجور من يتقاضون أجراً من العمال وإجبارهم على العمل فوق طاقتهم مما جعل بعض كتاب ذلك العصر يدعوا شاد العماثر (المشرف على أعمال البناء ، والذي قد يشرف على بناء القنطرة أو الجسر) إلى اللطف والرفق بالفعلة والعمال « . . . لأن استعماهم فوق طاقتهم من أقبح الحرمات ، وأشنع الجراءات على الله تعالى في خلقه . . . »^(٧) ولكن الطريقة الشائعة في تشغيل هؤلاء العمال كانت « السخرة » ودليل ذلك ما حدث سنة ٧٢٥هـ أثناء العمل في الخليج الناصري^(٨) وقد

-
- (١) ابن حجر : أنباء الفهرج ٢ ورقة ١٤١ (مخطوط) .
 (٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٢٨-٢٢٩ ، ص ٢٩١ ، ص ٢٩٤ (نشر محمد مصطفى) .
 (٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٨ - ١٤٩ .
 (٤) المقرئ : السلوك ج ٢/١ ص ١١١ - ١١٢ .
 (٥) المرجع السابق ج ٣/٢ ص ٤٦٩ .
 (٦) المرجع السابق ج ٢/١ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، المخطوط ج ٢ ص ١٤٤ .
 (٧) السبكي : معيد النعم ص ٧٢ .
 (٨) المقرئ : السلوك ج ٢/١ ص ١٦٥ ، ٢٦١ - ٢٦٢ .

يتجاوز الأمر الحد في تسخير الناس في هذه الأعمال للدرجة أخذهم من المساجد والجموع وقت السحر وأخذهم من الأسواق وتقييدهم بالحبال وإرسالهم إلى مواقع العمل ، مما جعل الناس يلزمون بيوتهم — في هذه الأحوال — خوفاً من السخرة^(١) ، وقد حدث سنة ٧١٦هـ أن انقطع أحد الجسور في الجيزة « ... وجمع لسده خلق كثير ون غرق منهم نحواً من ثلاثين إنساناً انطبق عليهم الجسر . . . » وبعدها بوقت قصير قبض على حوالي سبعين رجلاً غيرهم من شوارع مصر والقاهرة « . . . وكُتفوا وأنزلوا في المراكب لسد الجسر فانقلبت بهم وغرقوا جميعاً . . . »^(٢) .

ويبدو أن عمال السخرة هؤلاء كانوا يعملون لقاء قوتهم اليومي ، فإننا كثيراً ما نقرأ في مؤلفات ذلك العصر أن « المطعومات » قد عملت أثناء العمل في أحد الجسور أو الخللجان لإطعام العاملين ، بل أن المقریزی يقرر أن جملة ما أنفق لإصلاح قناطر شبين سنة ٧٤٠هـ بلغ ثلاثين ألف دينار « . . . غير أجر سخرة البلاد^(٣) . . . » ، ولا نعلم على وجه اليقين هل المقصود هنا قيمة ما أنفق على إطعامهم ، أم غير ذلك .

وعلى كل حال فإنه في بعض الأحيان — وحين تشتد الحاجة إلى الأيدي العاملة — كان العمال والفعلة المستخدمون في هذه المشروعات يتقاضون أجوراً^(٤) ففي سنة ٧٤٩هـ أثناء بناء الجسر تحت إشراف « منجك اليوسفي » نودي في الفعلة والعمال والحرافيش « . . . من أراد العمل فله درهم ونصف وثلاثة أرغفة . . . » ويفهم أيضاً مما ذكره المقریزی عن تكاليف إصلاح قناطر شبين سنة ٧٤٠هـ أن العمال والفعلة الذين عملوا في إصلاحها كان منهم السخرة ومنهم من تقاضى أجراً عن عمله^(٥) ، وثمة دليل آخر يذكره المقریزی أيضاً فقد انقطع أحد الجسور وصار ما بين بولاق والقاهرة « بحرّاً واحداً » ، وأصبحت القاهرة ذاتها مهددة بالغرق « . . . وطلب الفقراء للعمل فبلغت أجرة الرجل في كل

(١) المرجع السابق ج ٢/ق ٢ ص ٥٥٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ج ٩ ص ١٢٤ — ١٢٨ .

(٢) المقریزی : السلوك ج ٢/ق ١ ص ٢٦٢ .

(٣) المرجع السابق ج ٢/ق ٢ ص ٤٧٣ .

(٤) المرجع السابق ج ٢/ق ٣ حوادث سنة ٧٤٩هـ والخطط ج ٢ ص ١٦٧ .

(٥) المقریزی : السلوك ج ٢/ق ٢ ص ٤٧٣ .

يوم ما بين درهم إلى ثلاثة دراهم لعزة الرجال واشتغالهم عند الناس في نقل التراب^(١) .
 وكان اشتراك الناس في هذه الأعمال إجبارياً ، فيخرج الممالك بأجنادهم وغلمانهم
 ويخرج المقطعون بفلاحى البلاد الجارية في إقطاعاتهم وينادى في المدن بخروج العامة
 للعمل ، وعادة ما كان النداء مصحوباً ببعض التهديدات كما حدث زمن « السلطان
 الملك المؤيد شيخ » مما جعل الأسواق في القاهرة وظواهرها تملو من روادها ، وأقفلت
 القياسر» . . . والمنادى ينادى بالتهديد لمن تأخر في الحفير حتى أنه نودى في بعض
 الأيام أن من فتح دكاناً شق ، فتوقفت أحوال الناس . . . » ولم تكن العامة تملك إزاء
 هذه المظالم سوى نظم الأشعار والأغنيات الساخرة فصنفوا في ذلك غناء كثيراً وعدة
 بلاليق^(٢) .

وهكذا فقد تقلبت أحوال العمال والفعلة في هذه المشروعات آنذاك ما بين
 تسخيرهم مقابل قوتهم اليومى ، والأجر اليومى الذى قد يكون نصفه عينياً في بعض
 الأحيان والنصف الآخر نقدياً . ويتضح من كلام مؤرخى عصر سلاطين الممالك
 أن هؤلاء الفعلة كانوا يؤخذون من بين جموع الفلاحين أو عامة أهل المدن ، ولكنهم
 بطبيعة الحال لم يكونوا محل رعاية من أى نوع ، بل أنهم كثيراً ما تعرضوا لمعاملة بالغة
 القسوة لدرجة أن الرجل منهم « . . . كان يخز إلى الأرض لعجزه عن الحركة فتردم
 عليه رفقته فيموت من ساعته . . . »^(٣) .

وفي مواقع العمل كانت الحركة الدائبة ترسم صورة مهرجان شامل ، فيفد الباعة
 ببضاعتهم من المأكولات والمشروبات يبيعونها للعمال والفعلة ، كما تحضر إلى مكان
 العمل « المغانى » من سائر أنحاء البلاد ومعهم طبولهم وزمورهم أملا في عطايا السلطان
 أو الأمراء ، ففي سنة ٦٨٢هـ - على سبيل المثال - خرج « السلطان المنصور قلاوون »
 بنفسه لمباشرة العمل في حفر خليج البحيرة « وعملت المطعومات لكل من يباشر العمل . . »

(١) المرجع السابق ج ٢/ق/ص ٢٥١ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ / (طبعة كاليفورنيا ص البلاليق أنواع من النظم ، تمتاز
 بخفة الروح عرفت في عصر سلاطين الممالك وتتضمن كثيراً من ألوان المداعبات والفكاهة (سعيد عاشور :
 المجتمع المصرى ص ١٠٢) .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٢٤ - ١٢٨ (ط . دار الكتب) .

وكان يوماً من الأيام المشهودة « . . . من اجتماع العالم والرهج بالطبلخاناه من كل مكان . . . » ، « . . . وحضرت مغاني العرب وغيرهم من كل جهة .. »^(١) كذلك حدث سنة ٨١٨ هـ أن نودي بخروج الناس للحفير ، وخرجت طوائف المصريين إلى موقع العمل ومع كل طائفة منهم الطبول الزمور . . . وكان ذلك مدعاة لاجتماع الناس « . . . من الرجال والنساء للفرجة . . »^(٢) .

وغالباً ما كان يفرض على كل من أمراء المماليك مساحة معينة يكون مسئولاً عن إنجازها بمن معه من الرجال^(٣) ، فيأتي الأمراء بأجنادهم ويحضر سائر الناس للاشتراك في العمل ، وكان كل أمير يلزم من يسكنون داخل منطقة نفوذه بالخروج معه إلى منطقة العمل كما كان السلطان ينزل بنفسه أحياناً ، بل أن الظاهر بيبرس كان يشارك في العمل بنفسه ويحمل القفة مملوءة تراباً على كتفه والناس تراه فيشتعل حماسهم للعمل أثناء حفر خليج أشموم طناح^(٤) .

وخلاصة القول أن ضبط مياه النهر وشواطئه كانت مسألة هامة يشارك الجميع في تحمل تبعاتها ، ومما سبق نستطيع أن نلمس بسهولة أن هذه المسألة كانت تشغل بال السلاطين حتى في أوقات الفوضى والاضطراب ، وإن لم تكن العناية التي يبذلها السلاطين في هذا الصدد على مستوى واحد في كل الأحيان ، فقد تعددت منشآت كل من الظاهر بيبرس والسلطان الناصر محمد بن قلاوون في هذا المجال واستجدت أراض جديدة كانت بوراً ، وزاد الخراج زيادة كبيرة ، وربما يكون ذلك راجعاً إلى طول مدة حكم كل منهما مما أتاح لكليهما فرصة التحكم في مقدرات الدولة . وعلى النقيض من ذلك نستطيع أن نرى حوادث انقطاع الجسور وتهدم القناطر وشرافي الأراضي تكثر الإشارة إليها في المراحل الأخيرة من عصر سلاطين المماليك فضلاً عن عدم تجديد أية منشآت تخدم النهر ، ويمكن تفسير ذلك في ضوء حالة الاضطراب والفوضى التي سادت أوجه الحياة المصرية جميعاً في الطور الأخير من ذلك العصر .

(١) ابن عبد الظاهر تشریف الأيام والعصور ص ٢٤ - ٢٦ ، تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤٤ - ٣٤٥ (كاليفورنيا) .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ٢/ق ١ ص ٢٥١ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة :

ج ٦ ص ٣٤٤/٣٥٤ (كاليفورنيا) .

(٤) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٤ هـ (مخطوط) .

وعلى كل حال فإن أعمال ضبط النهر كانت تؤتي ثمارها في شكل المناطق الجديدة التي تستزرع ، وكفاءة أعمال ضبط النهر ، فقد اشتهر عن « الناصر محمد بن قلاوون » اهتمامه بشئون الري فإذا سمع أن قرية ما لم ترو من مياه الفيضان اهتم بذلك وتابع الأمر حتى يتمكن من ريتها ، بل اشتهر عنه أنه كان يفرح إذا سأله بعض الأجناد أن يبنى جسراً أو يعطيه تقاوى عن وعى بأنه « . . . لم نجمع المال في بيت المال إلا لهذا المعنى وغيره » وكان يركب بنفسه كي يفتش على الجسور والترع والقناطر ونتيجة لذلك زاد خراج مصر زيادة هائلة ، واستجدت أراضي زراعية جديدة^(١) وعند تجديد حفر خليج الإسكندرية سنة ٦٦٤هـ في عهد الظاهر بيبرس ، ثم زمن الناصر محمد تم استصلاح أراضي جديدة واستجدت عليه قرية كبيرة عرفت باسم « الناصرية » وبلغ جملة ما أنشئ على ضفتي هذا الخليج أكثر من مائة ألف فدان ، وحوالي ستمائة ساقية وأربعين قرية ، كما سارت فيه المراكب الكبار تحمل المتاجر ، واستغنى أهل الشجر عن خزن المياه في الصهاريج وعمر عليه نحو ألف غيط وعمرت عدة بلاد وتحول الناس حتى سكنوا ما عمر من الأراضي على الخليج « . . . فصارت حقولا للقصب والقلقاس والسمن بعد ما كانت سباخاً . . . »^(٢) وحين حفر الخليج الناصري سنة ٧٢٥هـ جرت فيه السفن وعمرت عليه السواقي لرفع المياه وري الأراضي الجديدة ، وأنشئت على ضفافه البساتين والأماك وتنافس الناس في السكن هناك وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق ، وصار هذا الخليج « . . . موطن أفراح ومنازل لهو ومغنى صبايات وملعب أتراب »^(٣) . . .

ولعل ما سبق يعطينا صورة واضحة لما يمكن أن يحققه ضبط النهر من نتائج في اقتصاديات البلاد وحياة ساكنيها فقد كانت مياه النهر — كما كانت أبداً وكما تزال إلى اليوم — ثروة قومية تقف في المحل الأول قبل أية موارد أخرى للبلاد ، وبمقدار النجاح في التحكم فيها تكون صورة الأرض المصرية وتوزيع الألوان من حيث انتشار المساحات الخضراء أو انحسارها ، وما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من نتائج . صحيح أن الأراضي الجديدة كانت توزع في شكل إقطاعات على المماليك وأجنادهم ، لكن

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٩٠/١٩١ (ط . دار الكتب) .

(٢) المرجع السابق : نفس الجزء ص ٨١ - ٨٢ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢/ق ١ ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، الخطط ج ٢ ص ١٤٤ - ١٥٠ .

ذلك كان يعكس نوعاً من الرخاء الذى قد تمتد آثارة إلى السواد الأعظم من سكان البلاد ولو على شكل الفتات .

طريقة قياس زيادة النهر وإعلانها :

يؤخذ قاع النيل (وهو ما بقى من الماء القديم فى النهر ليكون أساساً تحسب عليه الزيادة) فى السادس والعشرين من شهر بؤونة، ويبدأ النداء على الزيادة فى اليوم التالى^(١) وفى عصر كل يوم يقيس صاحب المقياس مقدار الزيادة، وفى صباح اليوم التالى يخرج المنادون يعلنون مقدار زيادة النيل بالأصابع فقط دون أن « يصرحوا بذرع » (أى دون التصريح بعدد الأذرع)^(٢) وذلك خوفاً من حدوث الاضطرابات بين جموع العامة إذا كان النيل ناقصاً . ويذكر بيلوتى الكرىتى^(٣) الذى زار مصر فى مطلع القرن الخامس عشر أنه فى صباح كل يوم كان عدة فرسان يرفعون الأعلام فوق أكتافهم، ويتجهون إلى المقياس كى يعرفوا مقدار زيادة النهر ثم يسرون خلال طرقات القاهرة يصيحون « أن النهر زاد كذا » وهؤلاء الفرسان الذين يصنفهم بيلوتى هم الذين أطلقت عليهم المصادر العربية اسم « مناديو البحر » الذين كانت وظيفتهم مشابهة لدور وسائل الإعلام فى عصرنا الحاضر من حيث نقل أخبار النهر اليومية إلى عامة الناس^(٤) .

وفى كل يوم كان صاحب المقياس يكتب رقاعاً إلى أعيان الدولة « من أرباب السيوف والأقلام »^(٥) (مثل أصحاب الوظائف من الأمراء وقضاة القضاة من المذاهب الأربعة ، وكاتب السر ، وناظر الخصاص ، وناظر الجيش والمحتسب ومن فى معناهم) كان صاحب المقياس يكتب إليهم بمقدار زيادة النيل فى ذلك اليوم من الشهر العربى وموافق من الشهر القبطى ، وعدد الأذرع التى صارت إليها الزيادة ، ولا يطلع على ذلك عامة الناس خوفاً من البلبلة والاضطراب الناتج عن معرفة الناس بقصور النهر، وحين يكمل النهر ستة عشر ذراعاً (علامة الوفاء) يبدأ « مناديو البحر » فى التصريح

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، المقرئى : الخطط ج ١ ص ٥٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧ .

(٣) Dopp : L'Egypte au Com. pp. 20 - 21.

(٤) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٥٦ (نشرة زيادة) .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧ .

بعدد الأذرع » ويصير ذلك مشاعاً عند كل أحد وعلامة الوفاء أن يسدل الستار الخليفة على الشباك الكبير في صدر دار المقياس فإذا شاهده الناس استبشروا بالوفاء^(١) .

مقاييس النيل :

اعتبرت زيادة النيل في كل العصور بمثابة « ترمومتر » الثروة القومية ومن ثم كان طبعياً أن يهتم المصريون منذ فجر تاريخهم بمقاييس النيل التي بنيت على النهر من أسوان حتى القاهرة ونستطيع تقسيم هذه المقاييس إلى قسمين : (١) مقاييس ما قبل الإسلام (٢) مقاييس مصر الإسلامية .

وبالنسبة لمقاييس القسم الأول لا نجد في المراجع العربية سوى صورة مضطربة عنها يغلب عليها الجحوى الأسطوري وتشوبها الخرافات . وتقول الروايات العربية إن أول من قاس النيل بمصر هو خصليم السابع^(٢) (من أبطال الأساطير العربية التي حيكت حول تاريخ مصر قبل الإسلام) . ويقال أنه صنع بركة تركب عليها صورتا عقاب من نحاس ذكر وأثنى يجتمع عندهما الكهنة والعلماء في يوم مخصوص من السنة ، ويتكلمون بكلام معين فيصفر أحد العقابين فإذا صفّر الذكر استبشروا بزيادة النيل ، وإن صفّرت الأثنى استشعروا عدم الزيادة فتهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة .

وينسب المؤرخون مقياس منف إلى يوسف عليه السلام ويقولون إن هذا المقياس أول مقاييس مصر قبل الإسلام^(٣) . كذلك ينسبون إلى دلوكة العجوز (من ملوك مصر بعد الطوفان وفقاً لروايات الأساطير العربية) بناء مقياسين بأنصنا وأخميم من بلاد الصعيد^(٤) ولكن الأسعد بن ممتى ينسب هذين المقياسين إلى ملوك العجم دون تحديد

(١) السيوطي : كوكب الروضة ص ٤٧ (مخطوط) .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧ .

(٣) المنوفى : الفيض المديد ص ٤٠ (مخطوط) ، المحلى : مبدأ النيل ص ٦ - ٦ (مخطوط) ،

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ، ابن الوردي : خريدة العجائب ص ١٥٥ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٧٤ ، ابن ممتى : قوانين الدواوين ص ٧٥ - ٧٦ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ١٩٨ ، السيوطي : كوكب الروضة ص ٧٤ (مخطوط) ،

المنوفى : الفيض المديد ص ٤٠ مخطوط .

الأسماء ، ويضيف إليهما مقياساً بناه القبط بقصر الشمع^(١) .

أما المقاييس التي استحدثها العرب بعد فتح مصر فهي : (١) مقياس أسوان الذي أقامه عمرو بن العاص بعد فتح مصر ، كما ينسب إلى هذا الفاتح مقياس آخر بدندرة من بلاد الصعيد^(٢) .

(٢) مقياس آخر بني في عهد معاوية بن أبي سفيان بأنصنا ، وقد ظل هذا المقياس مستخدماً حتى بنى عبد العزيز بن مروان مقياساً غيره بحلولان في سنة ٨٠ هـ^(٣) .

(٣) المقياس الذي بناه أسامة بن زيد التنوخي بجزيرة الروضة سنة ٩٧ هـ ، وهو أكبر هذه المقاييس جميعاً وقد تهدم بفعل مياه النهر^(٤) ، ويذكر بعض المؤرخين أن هذا المقياس هو نفس المقياس الذي ظل مستخدماً لقياس الزيادة في عصر سلاطين المماليك^(٥) إلا أننا لا نستطيع الأخذ بهذا الرأي لأنه يخالف لإجماع المؤرخين .

(٤) وفي سنة ١٩٩ هـ بنى الخليفة المأمون مقياساً بجزيرة الروضة ولكنه لم يتمه ، ويبدو أنه كان محاولة لترميم المقياس الذي بناه « أسامة بن زيد التنوخي » ، وعلى كل حال فإن الخليفة المتوكل بنى مقياساً مكان هذا المقياس وربما يكون قد أتم المقياس الذي بناه الخليفة المأمون ، وقد ظل هذا المقياس الذي بنى سنة ٣٤٧ هـ مستخدماً لقياس النيل طوال عصر سلاطين المماليك ، وقد أصلحه « أحمد بن طولون » سنة ٢٥٩ هـ^(٦) .

(١) ابن ماق : قوانين الدواوين ص ٧٥ - ٧٦ - (ينسب القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧) والمقرئزي (الخطط ج ١ ص ٥٦/٥٧) هذا المقياس إلى الروم وليس القبط .

(٢) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣) السيوطي : كوكب الروضة ص ٧٤ (مخطوط) ، ابن ماق : قوانين الدواوين ص ٧٥/٧٦ ، الخطط المقرئزية ج ١ ص ٥٧ .

(٤) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٥٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٧٤ ، ابن ماق : قوانين الدواوين ص ٧٢ .

(٥) المحلى : مبدأ النيل على التحرير ص ٦ - ٧ (مخطوط) .

(٦) المنوفي : الفيض المديد ص ٤٠ (مخطوط) ، ابن ماق : قوانين الدواوين ص ٧٥ - ٧٦ ، المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٥٧ (يذكر ابن دقماق أن هذا المقياس قد بنى سنة ٢٤٥ هـ الانتصار

ج ٤ ص ١١٥) ، انظر كذلك السيوطي : كوكب الروضة ص ٧٤ وكذلك القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٩ .

ويهمنا بطبيعة الحال أن نقف على وصف المقياس الأخير^(١) - وهو الذى ظل مستخدماً طوال عصر سلاطين المماليك - إذ كانت دار المقياس تقع فى الطرف الجنوبى من جزيرة الروضة ، وهى عبارة عن برج عظيم حوله بسطتان تردان عنه مياه النهر وثمة أبنية كثيرة داخل هذا البرج ، ودائرة شبابيك ، وفى الناحية الشرقية من هذا المبنى شباك كبير (هو الذى يعلق عليه الستر الخليفى علامة الوفاء) ، وبجوار هذا المبنى فسقية كبيرة فى وسطها المقياس ، وبين الفسقية والبرج باب ، ويمكن النزول للفسقية بواسطة درج (سلم) دائرية . والمقياس نفسه عبارة عن عمود رخام مثنى قسم إلى تسع عشرة قطعة طول كل منها ذراع ، وقسمت كل منها إلى أصابع ، وقد قسمت كل من الإثنى عشر ذراعاً الأولى إلى ثمانية وعشرين إصبعاً ، بينما قسمت كل من الأذرع الباقية إلى أربعة وعشرين إصبعاً^(٢) وكانت قاعدة المقياس حوالى ذراع ، وبلغ طول عمود المقياس تسعة عشر ذراعاً فقط ، ومع ذلك فإن الزيادة كان ينادى عليها أحياناً عشرين ذراعاً وأكثر . وكان قياس ذلك يتم عن طريق ملاحظة الخط الكوفى الذى بداير الفسقية ، ويدخل بوسط هذا العمود الرخام عمود حديد يمسك قطع الرخام ، وبأعلى السقالة وهى من الخشب المجوف ومحشوة بالرصاص كى تعطى عمود المقياس القل المطلوب لتثبيته ، ويصل ماء النيل إلى هذه الفسقية خلال فتحات ثلاث بعضها فوق بعض ، وطول كل منها حوالى سبعين ذراعاً ، وذلك حتى يظل الماء ساكناً داخل الفسقية بعيداً عن أمواج النهر ومن ثم يمكن قياسه ، وكانت هناك قوة كبيرة من الجنود تتولى حراسة دار المقياس .

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٥٨ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١١٤ ، ابن الوردي : خريدة العجائب ص ١٥٦ ، المنوفى : الفيض الجديد ص ٤١ - ٤٢ (مخطوط) .

(٢) لدينا روايتان حول السبب الذى من أجله قسم عمود المقياس على هذا النحو ، تقول الرواية الأولى أنه لما فتحت مصر عرف عمر بن الخطاب ما يلقاه أهلها من القحط عند قصور النيل فاقترح عليه على بن أبى طالب أن يبنى مقياساً ويقسمه على هذا النحو (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٧٤ - ٣٧٥) بينما تقول الرواية الثانية أن المهندسين حين اجتمعوا لعمل قانون الرى للبلاد المصرية أخبروا الخليفة المتوكل أن كفايتها من ستة عشر ذراعاً ولكنهم حين أعادوا النظر اكتشفوا أن الكفاية فى ثمانية عشر ذراعاً وخشوا أن يتهمهم الخليفة بالعجز ففضوا الذراعين على الإثنى عشر ذراعاً الأولى لتكون كل منها ثمانية وعشرين إصبعاً ، وتبدو الرواية الثانية أكثر منطقية كما أن المقياس الذى بناه المتوكل وهو الذى نصفه فى السطور أعلاه هو الذى ظل مستخدماً طوال عصر المماليك ، زد على ذلك أن سبب التقسيم على هذا النحو غير واضح فى الرواية الأولى (المنوفى : الفيض الجديد ص ٤٠) .

كان أقباط مصر هم الذين يتولون قياس النيل حتى عام ٢٤٧هـ حين بنى الخليفة المتوكل مقياس الروضة فأمر بعزل النصارى من ولايته ، وأن يتولاه مسلم ، فتم اختيار « أبي الرداد المعلم » واسمه « عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي الرداد المؤذن » ، وأجرى عليه صاحب خراج مصر آنذاك راتباً شهرياً قدره سبعة دنانير^(١) ، وظل هذا المنصب متوارثاً في عائلة أبي الرداد حتى بعد نهاية عصر سلاطين المماليك ، وظل (القياس) من عامة الموظفين يخلع عليه السلطان في أعياد الوفاء وله راتب سنوى وخلعة مقرر^(٢) .

احتفالات وفاء النيل وكسر الخليج :

كان بلوغ النيل ستة عشر ذراعاً بشيراً بوفاء النهر ، وإيذاناً ببدء ذلك المهرجان القومى الضخم احتفالاً بهذه المناسبة التى يشارك الجميع فى احيائها باعتبارها عيداً قومياً ، يهتم الجميع به ابتداء بالسلطان وانتهاء « بالعامه » - كما دأبت المراجع المعاصرة على تسمية أبناء الشعب - وكانت تحيط باحتفالات وفاء النيل ، وكسر الخليج كل مظاهر الفخامة والعظمة التى ميزت تلك العصور : فإذا أتم النهر الستة عشر ذراعاً يعلق على الشباك الكبير فى الجهة الشرقية من دار المقياس ستر أصفر فيعلم الناس بالوفاء ، وتكون هذه الليلة من الليالى العظيمة بمصر والقاهرة ، يوقد فيها الأهالى القناديل والشموع ويتحول ليل القاهرة إلى نور من كثرة الأضواء ، ويحضر كبار الأمراء ومعهم الاستادار بالخلع التى توزع عادة فى هذه المناسبة ، ويحضر مقرئو القرآن الكريم يبيتون بدار المقياس ويتناوبون القراءة طوال الليل ، كما يحضر المغنون الذين يغنون لمن يكون موجوداً فى دار المقياس طوال الليل^(٣) .

وفى صباح اليوم التالى يعمل سماط حافل من الشواء والحلوى والفاكهة ويحضره السلطان أو غيره ممن يقوم مقامه من الأمراء ويتخاطف العامة السماط « . . . ولا يمنع أحد من ذلك » ، وفى بعض الأحيان كان يجيى من أهل مصر والقاهرة ثمن الحلوى

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٥٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٧٥ ، ابن ماقى : قوانين الدواوين ص ٧٦ .

(٢) النويرى : : نهاية الأرب ج ١ ص ٦٤ ، السيوطى : كوكب الروضة ص ٧٤ (مخطوط) .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١١٤ ، ص ١١٥ .

والفاكهة والشواء الذى يوضع فى السماط الذى يمد فى دار المقياس يوم الاحتفال بوفاء النيل ، ولكن « السلطان المنصور قلاوون » أبطل ذلك وجعل مصر وفه من بيت المال^(١). وبعد الانتهاء من السماط يبدأ الاحتفال وهو مرحلتان : (١) تخليق المقياس (٢) وكسر سد الخليج . . . وكانت المرحلة الثانية تتم فى اليوم الثالث أو الرابع من المرحلة الأولى أيام الفاطميين ولكن الاحتفال بمرحليته صار يتم فى يوم واحد أيام المماليك^(٢). ويبدأ الاحتفال بوفاء النيل^(٣) بتزول السلطان من قلعة الجبل وفى خدمته قادة الجيش والأعيان وخواص دولته فى الحراريق المزينة بالأعلام والصناجق وسائر أنواع الزينات ، وفيها الطبلخانات والنفوط حتى يصل الموكب إلى دار المقياس ، وهناك يمتد السماط السابق ذكره ، وبعد الفراغ من الطعام يذاب الزعفران فى ماء الورد فى إناء من الفضة ويعطى السلطان الإناء لابن أبى الرداد الذى يلتقى نفسه بقماشه (بملايسه) فى الفسقية ومعه ذلك الإناء الفضى فيخلق عمود المقياس بالزعفران ، ثم يخرج السلطان أو نائبه فيجلس بالشباك الكبير تحت الستر ، ويفرق الخلع على « من له عادة بذلك » مثل والى القسطنطين ، ورئيس الحراقة السلطانية (الذهبية)^(٤) « ورؤسا حراريق الأمراء » ويؤتى بحراقة السلطان إلى ذلك الشباك فينزله إليها ويسبح بها وحوله حراريق الأمراء المزينة بكل أنواع الزينات ، وقد اختفت صفحة النهر تحت عشرات المراكب والقوارب المليئة بالمتفرجين يسرون خلف الحراقة السلطانية وحراريق الأمراء حتى يدخل الموكب إلى فم الخليج وتسير حراقة السلطان المعروفة بالذهبية وحراريق الأمراء يلعب بها ويرى بمدافع النفوط على مقدمتها فى استعراض نهري كبير ، ويستمر هذا الموكب حتى موقع سد الخليج حيث يكون نائب السلطنة أو حاجب الحجاب ومعه بعض كبار

(١) ابن آياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢١ (ط . بولاق) .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٢ - ٥١٤ .

(٣) البكتبي : مباهج الفكر ج ١ / ق ٢ ورقة ٨٦ (مخطوط) ، السيوطي : حسن المحاضرة : ج ٢ ص ٣٠٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٣٣ (ط . دار الكتب) ، ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٨٧ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧ - ٤٨ ، ابن دقماق : الانتصار : ج ٤ ص ١١٥ .

(٤) كانت هذه المركب من شعار المملكة وقد أبطلها الأشرف قايتباي (بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠١ ط . بولاق) ثم أعيدت ثانية سنة ٩١٩ هـ حين أمر السلطان الغوري بإنشاء مركب مشابهة وزينت بالصناجق والأعلام ووضعت فيها الطبول والزمر والنفوط (بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٩٨ نشر محمد مصطفى) .

الأمراء منتظرين فوق قنطرة السد ، وتحمل طبخانة السلطان على الأكاديش وينزلون قنطرة السد ، وهناك يتوجه السلطان بحصانه من فم الخليج إلى السد الترابي حيث ينزل من حصانه ويمسك بمعول من الذهب الخالص ويضرب السد ثلاث ضربات ، ثم يركب ثانية فيأتي جمع غفير من الناس بفئوسهم فيحفرون هذا السد حتى يجري الماء في الخليج ثم ينصرف السلطان إلى القلعة^(١). ولم يكن كل سلاطين المماليك يحرصون على حضور هذه الاحتفالات بأنفسهم ، مما جعل المؤرخين يجدون في اشتراك السلطان شخصياً في هذه الاحتفالات أمراً جديراً بالتسجيل^(٢) .

وقد ظلت مظاهر الفخامة والأبهة والعظمة تحيط باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج حتى أواخر عصر سلاطين المماليك . ففي سنة ٩٠٥ هـ توجه الأمير طومانباي لفتح السد ، وفرق على جماهير المتفرجين الحلوى والفاكهة ، ونثر للعوام الفضة عند السد ، وكان يوماً مشهوداً^(٣) ، وشهد عام ٩٢٢ هـ آخر احتفالات المماليك بوفاء النيل بحضور الأمير طومانباي نائب الغيبة آنذاك في احتفال ضخم^(٤) رغم الحرب الدائرة ضد العثمانيين آنذاك .

ولكن الفتن والاضطرابات السياسية كثيراً ما كانت تطغى على بهجة هذه الاحتفالات ففي سنة ٨٩٩ هـ كسر سد الخليج بدون احتفال ، إذ كانت القاهرة تموج بفتنتها ، وحروب الشوارع بين طوائف المماليك قائمة على أشدها ، ولم يتوجه للفرجة أحد الناس «... لأن كل أحد كان مشغولاً بنفسه عن ذلك»^(٥) . وفي بعض الأحيان كان السلطان يمتنع عن الاشتراك في هذه الاحتفالات خوفاً على حياته^(٦) .

وكان الاحتفال بهذه المناسبة يتم أثناء النهار ، وقد ربط بعض مفسري القرآن الكريم بين قوله تعالى إخباراً عن فرعون « قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس

(١) Dopp : L'Egypte au Com , p. 21.

(١)

(٢) ابن حجر : إنباء الفرج ج ١ ص ١٩٨ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٧ ، وكوكب الروضة ص ٩٨ (مخطوط) .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٧٤ (ط. بولاق) .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٧ (ط. بولاق) .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٣١٧ (ط. بولاق) .

(٦) المقرئزي : السلوك ج ٣/٣ ص ١٠٢٢ .

ضحى « وبين الاحتفال بوفاء النيل على أساس أن اجتماع الناس للاحتفال بتخليق المقياس يكون وقت الضحى^(١) ، ولكن حدث سنة ٩٠٤ هـ أن كسر السد ليلاً - ولعلها المرة الوحيدة التي حدث فيها ذلك - والسبب كما يورده المؤرخ ابن أياس هو أن السلطان أبا السعادات محمد بن قايتباي أراد أن يحضر الاحتفال بنفسه ، ولكن الأمراء منعوه خوفاً من الفتنة ، فنزل ليلاً في خواصه وفتح السد ، وأصبح الناس ليجدوا الماء في الحجان والبرك فتعجبوا لأن ذلك « ما وقع قط في الجاهلية ولا في الإسلام » ، « وقد ضيع على الناس فرحتهم بيوم الوفاء »^(٢) .

وحين يبلغ نهر النيل علامة الوفاء ، كانت تكتب البشائر بذلك من ديوان الإنشاء وترسل إلى سائر البلاد لتطمئن قلوب العباد ولتكون بمثابة إشعار باستحقاق الحراج ، وتكون البشارة أيضاً بوفاء النيل ، والسلامة في الركوب لكسر الخليج « وهذه البشائر من خصائص الديار المصرية التي تنفرد بها^(٣) » وفي بعض الأحيان كانت البشارة بوفاء النيل تتخذ حجة لجباية بعض الأموال للبريدى (حامل البشارة) ، وإذا كانت الدولة عادلة « لا يجبي للبريدى شيء بسبب ذلك^(٤) » .

الأعياد الأخرى (عيد الشهيد ، عيد النيروز) :

لم تكن احتفالات وفاء النيل وكسر الخليج هي المظهر الاجتماعي الوحيد المرتبط بالنهر العظيم ، بل ثمة من الأعياد ومظاهر الحياة الاجتماعية ما كان مرتبطاً بالنهر ارتباطاً مباشراً ، من ذلك « عيد الشهيد » ، « عيد النيروز » وغيرهما من أعياد النصارى ، كما كانت صفحة النهر مجالا لمتنزهات المصريين ولهوهم ومراحاً لطربهم .

كان « عيد الشهيد » عيداً دينياً وقومياً في آن واحد ، وكان يقام سنوياً في ثامن بشنس من شهور القبط ، وكان الاحتفال به مهرجاناً كبيراً يقام على ساحل شبرا ،

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٤ ، المقرئى : الخطط ج ١ ص ٦٠ الكتبي : مباهج الفكر ج ١ ق ٢ ورقة ٨٦ (مخطوط) .

(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٤٥ ط . بولاقي .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٦٦ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٨٠ ، القلقشندي :

صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٨ - ص ٣٣٠ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٣٠ .

والسبب في إقامته ما كان الأقباط يزعمونه من أن النهر لم يكن ليزيد إلا بعد غسل إصبع أحد القديسين في مائه ، وكان هذا الإصبع يحفظ في تابوت بكنيسة في شبرا وقيل انه أصبح أحد أسلافهم من الشهداء^(١) وفي هذا العيد يتوافد الأقباط من شتى أنحاء البلاد ، كما يخرج أهل مصر والقاهرة على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم إلى شبرا لحضور هذا المهرجان الضخم ، حيث تنصب الخيام بأعداد هائلة على ساحل النيل وفوق الجزر ، ويجتمع الفرسان بخيولهم يرقصون بها على إيقاعات الطبول وأنغام الزمور ، وتجتمع المغاني من عرب وغيرهم من كل أنحاء البلاد « . . . ولا يبقى مغن ومغنية ، ولا صاحب لهو ، ولا رب ملعوب ، ولا بغى ولا مخنث ، ولا باض ولا خليع ، ولا فاسق ولا فاتك إلا ويخرج لهذا العيد . . . » وكانت تصحب هذا العيد مظاهر الفساد والانحلال والفوضى إذ ترتكب المعاصي جهراً ، وتثور الفتن ، وتقع حوادث القتل^(٢) . . . وكانت الاحتفالات بهذا العيد تمتد أحياناً إلى يومين بثلاث ليال^(٣) ، وكان فلاحو شبرا يعتمدون على مبيعاتهم من الخمر في هذا العيد للوفاء بما عليهم من الخراج^(٤) مما يبين مقدار ما كان يراق من الخمر في هذا العيد .

وفي سنة ٧٠٢ هـ أبطل بيبرس الجاشنكير الاحتفال بهذا العيد بسبب مظاهر الفساد والانحلال التي كانت تصاحب الاحتفال به وحاول الأقباط إعادته ثانية دون جدوى وظل كذلك حتى أعاده « السلطان الناصر محمد بن قلاوون » سنة ٧٣٨ ، والسبب في ذلك أن الأمير « يلبيغا اليحياوى » ، والأمير « الطنبغا الماردينى » طلبا الخروج للصيد ولكن السلطان لم يوافق « . . . لشدة غرامه بهما وتهتكه في محبتهما . . . » ، فعمل

(١) المقرئى الخطط ج ١ ص ٦٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٦٩ ، والمقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٤١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٠٢ (ط . دار الكتب) .

(٢) السيوطى : كوكب الروضة ص ١٣١ ، المقرئى : الخطط ج ١ ص ٦٨ ، السلوك : ج ١ ق ٣ ص ٩٤١ .

(٣) المقرئى السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٩٩ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٤١ ، الخطط ج ١ ص ٦٨ .

عيد الشهيد ليصرفهما عن ذلك ، وكانت مدة إبطاله ست وثلاثين سنة ثم أُبطل الاحتفال به نهائياً عام ٥٧٥٥ هـ بعدما هدم الأمير «صرغتمش» الكنيسة ، وأحرق التابوت الذى فيه الإصبع فى الميدان الكبير بحضور السلطان ثم ذرى رماده فى النهر^(١) .

وثمة عيد آخر كان قبض مصر يحتفلون به وهو «عيد النيروز» ويحتفل به فى أول شهر توت ، وكان متوارثاً عن قدماء المصريين الذين جعلوه فى هذا الوقت تكريماً للنهر بتمام مياهه ، وفى هذا اليوم كانت تعطل أسواق القاهرة ، وقد شارك المسلمون إخوانهم النصارى فى الاحتفال بهذا العيد ، وكانوا يصنعون بعض الحلوى ليفرقوها صباح يوم العيد على الأقارب والأحباب^(٢) وكان من عادة القبط فى هذا اليوم إيقاد النيران والتراش بالماء^(٣) فى الشوارع والطرق وفوق مياه النهر والبرك والحلجان وفى سائر أماكن النزهة ، ومن خصائص هذا اليوم أنه كان يعمل فى عصر سلاطين المماليك موكباً «كرنفال» يجوب شوارع القاهرة وطرقاتها ويتسم بالتهريج ويجنون من الناس بعض الأموال والأشياء والا أهانهم بصب التراب والماء عليهم وكانت مظاهر الفساد والفجور والفوضى بشتى ضروبها تصحب الاحتفال بهذا العيد ، وقلما كان يخلو أحد هذه الأعياد من حوادث القتل وقد أبطله السلطان الظاهر برقوق^(٤) (قبل سلطنته) ولكنه أعيد بعد ذلك فى عهد السلطان فرج بن برقوق^(٥) كذلك كان المصريون يحتفلون بعيد الصليب فى السابع عشر من توت ، وقد ارتبط كل من هذين العيدين بفتح سدود الترع والحلجان لرى الأراضى وقت الفيضان وكانت الجسور التى تفتح فى عيد النيروز تسمى «النيروزيات» كما كانت الجسور التى تفتح فى عيد الصليب تسمى «الصليبيات» .

وثمة ملاحظة يجدر بنا أن نسجلها فى هذا المقام وهى أن هذه الأعياد المرتبطة

(١) المقرئى : السلوك ج ٢/ق ٣ ، الخطط ج ١ ص ٦٨ .

(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٦ ، المقرئى : السلوك ج ٢/ق ٣ ص ٩٢٦ ويذكر بعض المؤرخين مثل عبد الرحمن السيوطى (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٩٩) وابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٠٢) أن هذا العيد قد أبطل نهائياً منذ عام ٥٧٠٢ هـ .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى : ص ٢٠١ - ٢٠٢ (الطبعة الأولى) .

(٤) السيوطى : كوكب الروضة ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٥) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٢٠٣ .

بنهر النيل - بما فيها عيد وفاء النيل - كانت أعياداً مصرية خالصة متوارثة عن قدماء المصريين ، ولم تكن تقليداً مستحدثاً جلبه العرب الفاتحون معهم . وعلى كل حال فإن هذه الأعياد لم تكن المظهر الاجتماعى الوحيد المرتبط بالنهر ، فقد كانت صفحته مجالا لتنزهات المصريين وأفراحهم كما كانت جزائره محطاً لتجمعات أفراحهم ولطوهم وطربهم ، وكثيراً ما نقرأ فى الكتب والمؤلفات المعاصرة أن بعض السلاطين قد أصدر أمره بمنع الناس من ركوب النيل بسبب مظاهر الفساد والانحلال التى تبدى واضحة فى هذه التجمعات من ذلك ما حدث سنة ١٧٠٦ هـ حين منع الأميران « بيبرس » ، و « سلار » المراكب من دخول الخليج الحاكمى للفرجة^(١) كذلك حدث سنة ١٧٨١ هـ أن منع الأميران برقوق وبركه مراكب التنزه من دخول الخليج الناصرى بسبب « . . . ما ينتهك فى المراكب من الحرمات ، ويتجاهر به من الفواحش والمنكرات . . . »^(٢) .

النيل والحياة السياسية :

« النيل قوام الحياة المصرية بشتى وجوهها » - هذه حقيقة وبديهية لا شك فيها ، فإن أعمال ضبط النهر لم تكن لتتم بمجهود فردى ، ولا بد من مجهود بشرى جماعى ضخيم حتى تعد الأرض لاستقبال البذرة ، فما جدوى مياه النهر بدون ضبطه والتحكم فيه ؟ وكذلك فإن زراعة الرى - كما هو الحال فى مصر - إذا تركت بغير ضابط يمكن أن تضع مصالح الناس المائتة فى مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة ودموية ، وهكذا فإنه بغير ضبط النهر يتحول النهر العظيم إلى أداة خراب وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلى عملية دموية^(٣) . وهكذا يفرض الإطار الطبيعى وجود التنظيم الاجتماعى شرطاً أساسياً للحياة ، ويتحتم على الجميع التنازل طواعية عن كثير من حرياتهم لتخضع لسلطة أعلى توزع الماء بالعدل بين سكان حوض النيل فى شطره المصرى ، والمحصلة - بطبيعة الحال - هى المركزية الصارخة التى ميزت الحكم المصرى طوال التاريخ .

ينسحب هذا الكلام على عصر سلاطين المماليك - كما ينسحب على غيره -

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ، ص ١٥٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٣) جمال حمدان : شخصية مصر ص ٤٨ - ٤٩ .

فبقدر ما كانت الحكومة المركزية في القاهرة قوية وقادرة — مثل عهد الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون — كلما انعكس ذلك على المنشآت الخاصة بضبط النهر وازدادت كفاءة أجهزة الري والعكس صحيح تماماً . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان للنهر أثره الكبير في حياة البلاد السياسية بشكل مباشر — كما كان له أثره في حياتها الاقتصادية والاجتماعية — فإذا قصر النهر عن حد الوفاء تسبب ذلك في حدوث حالة من الفوضى الشاملة التي تسود كل البلاد ، إذ يتبع الغلاء والوباء هبوط النيل في أحيان كثيرة ، وتضطرب الأمور ، وتكثر حوادث الاعتداء على موظفي الدولة مثل والى والمحتسب ، وقد يعزل السلطان المحتسب أو والى إذا نسب إليه سوء التدبير أثناء هذه الأزمات ، كما كان بعض هؤلاء الموظفين يستقيل من تلقاء نفسه . وفي ذلك العصر الذي تحكمت فيه الأفكار الميتافيزيقية والتفسيرات الغيبية للظواهر الطبيعية والاجتماعية كان الناس يربطون كثيراً بين السلطان الحاكم ، وبين هذه الأحداث تشاؤماً أو تفاؤلاً بحكمه ، فقد حدث زمن السلطان العادل كتيبغا (٦٩٤ — ٦٩٥ هـ) أن قصر نهر النيل فألمت بالبلاد كارثة المجاعة يتبعها الوباء الذي تسبب في هلاك الكثيرين وأدى إلى حدوث حال من الفوضى الشديدة « . . . وتدخل أمر الديار المصرية »^(١) ، وقد فشل حكم هذا السلطان فشلاً ذريعاً ، لأنه لم يحظ بتأييد الشعب أبداً أو الأمراء المماليك إذ شهد عهده سلسلة من سنوات نقص النيل ، وما يتبع ذلك من « الغلاء والفناء » ، ارتبطت في أذهان الناس بسوء طالعهم وسوء تدبيره^(٢) وقد وصف ابن عبد الظاهر أيام العادل كتيبغا بأنها « . . . شر أيام لما فيها من قصور مد النيل وغلاء الأسعار ، وكثرة الوباء في الناس . . »^(٣) وفي سنة ٧٠٩ قصر نهر النيل عن الوفاء ، واستسقى الناس وتبع ذلك الغلاء « المجاعة » فنسب الناس ذلك إلى سوء طالع كل من الأميرين بيبرس وسالار (كان بيبرس الجاشنكير سلطاناً والأمير سالار نائبه) ونظموا أغنية تسخر منها تقول كلماتها « سلطاننا ركين ، ونائبنا دقيق ، يجينا الماء من أين هاقوا لنا الأعرج ، يجيء الماء ويتدحرج » وذلك تشاؤماً بطلعة بيبرس الجاشنكير الذي كان لقبه « ركن الدين » فأطلق الناس عليه اسم « ركين » تصغيراً لشأنه وكان

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٥٩ (ط . دار الكتب) .

(٢) Lane-poole : A Hist. of Egypt pp. 289 - 290 .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ص ٢٩١ .

الأمير سلار أجرداً ، وفي ذقنه شعيرات قليلة فأسموه « دقين » ، وكان الناصر محمد ابن قلاون - المعزول آنذاك - به بعض عرج ، فأسموه الأعرج ، وكان هذا الغلاء الناتج عن قصور النيل في عهد السلطان بيبرس الجاشنكير من الأسباب القوية في فشل حكمه^(١) وقد حدث سنة ٧٨٢هـ أن بلغت زيادة النيل أربعة أصابع من ثمانية عشر ذراعاً ، ثم هبط ، فارتفعت أسعار الغلال ، وتكالب الناس على شرائها وتخزينها « طلباً للفائدة » ، مما أوجد حالة من القلق العام ، والفوضى الشاملة « ... فاستغاثت العامة في عزل الدميرو من الحسبة وهموا برجمه مراراً . . » مما جعله يختفى بمنزله خوفاً على نفسه ، وتم عزله وتعين آخر محله ففرح الناس بذلك^(٢) .

وهناك أمثلة كثيرة غير ما أوردناه تدل بوضوح على أن النيل كان يلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية الداخلية للبلاد ويؤثر فيها تأثيراً مباشراً . وكما كان للنيل أثره في الحياة السياسية وشئون الحكم ، كانت أحوال البلاد السياسية تؤثر بدورها في سير أعمال ضبط النهر وكفاءة جهاز الري ، فمن البديهي أنه لا بد من وجود حكومة قوية في القاهرة حتى يمكن إنجاز هذه الأعمال ، فإذا كان السلطان قوياً سارت أعمال ضبط النهر وصيانة الجسور وبنائها ، وشق الترع وتطهيرها وبناء القناطر على أكمل وجه ، والدليل أن السلطان الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاون قد خلفا الكثير من هذه المنشآت التي عدها المؤرخون من مآثرهما . أما إذا كانت الحكومة ضعيفة فإن ذلك كان ينعكس على مرافق الري التي ينخرها الإهمال ، ومن ثم تكثر حوادث انقطاع وانهيار الجسور ، وانسداد الترع بالرمال والطين (كما حدث لخليج المنهى أو بحر يوسف) وتداعى القناطر وتصدها ، وتعرض الأراضي الزراعية لأخطار الجفاف والعطش أو الغرق . ويلخص أحمد بن محمد المنوفى (ت ٩٣١هـ) ما صارت عليه الحال أواخر ذلك العصر بقوله « . . . تهدم في زماننا الجسور وقطعت وتحكم الفساد وخربت البلاد ، ووسد الأمر إلى غير أهله ووضع الشيء في غير محله ، ولا

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥٥ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٣ (ط . دار الكتب) ،
أبن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠ (ط . بولاق) ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٠ .
Lane - poole : A Hist. p. 305.

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣/١ ص ٣٩٥ .

جرم أن حل بالناس ما حل ، وانفرط عقد المملكة وانحل . . . »^(١) .

وفي بعض الأحيان كان النيل يؤثر في السياسة الخارجية للبلاد بشكل مباشر ، مثال ذلك ما كان يحدث في بعض الأحيان حين يلجأ « متملك الحبشة » إلى اتخاذ نهر النيل وسيلة للضغط على سلطان مصر وتهديده بقطع النيل وتحويله حتى لا يسير إلى مصر ، كما حدث سنة ١٧٢٦ هـ حين وردت رسل متملك الحبشة إلى بلاط السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومعهم كتاب من صاحب الحبشة ، يطلب منه إعادة ما خرب من كنائس النصراني في مصر ومعاملتهم بالحسنى وإلا فإن صاحب الحبشة سيخرب مساجد المسلمين في بلاده ويسير النيل حتى لا يعبر إلى مصر . . . » ولكن الناصر محمد لم يلتفت إلى هذا التهديد^(٢) كذلك حدث سنة ١٨٤٧ هـ أن جاءت إلى مصر رسل متملك الحبشة ومعهم كتاب منه إلى السلطان يتضمن التهديد بقطع النيل عن مصر إذا لم تتوقف عمليات اضطهاد المسيحيين المصريين ، وجاء في هذه الرسالة « . . . وليس يخفى عليكم ، وعلى سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة أن نمنع الزيادة التي تروى لها بلادكم عن المشي إليكم لأن لنا بلاداً انفتح لها أماكن فوقانية ، ينصرف منها الماء إلى أماكن أخرى قبل أن يجرى إليكم ، ولا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله عز وجل . . . »^(٣) .

خلاصة القول أن نهر النيل « المبارك » كان محور الحياة المصرية في عصر سلاطين المماليك بشتى نواحيها : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، والحقيقة أننا لا يمكن أن نفصل بين تأثير النهر على اقتصاديات البلاد ، وبين تأثيره في عادات الشعب الاجتماعية ، أو أمورهم السياسية ، لأن كلاً من هذه النشاطات تؤثر في الأخرى بقدر ما ، وبطريقة يصعب معها التحديد القاطع لكل منها .

(١) المنوفى : الفيض الجديد ص ٤٠ (مخطوط) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ / ق ١ ص ٢٧٠ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٧٤٥ - ٧٤٦ (مخطوط) .

الباب الثاني

فيضان النيل وعلاقته بالأزمات الاقتصادية

والمجاعات والأوبئة

النيل وعلاقته بالمجاعات والأوبئة - عرض لبعض المجاعات - أثر
هذه المجاعات في حياة الناس اليومية - أسباب أخرى للمجاعات -
عرض لبعض الأوبئة - موقف الدولة من هذه الأزمات .

الواقع أن هبوط النيل عن حد الوفاء ، أو زيادته عن المنسوب العادي للفيضان ،
كان يمثل خطراً حقيقياً على الحياة المصرية آنذاك ، وكارثة قومية يخشى الجميع
حدوثها . ذلك أن النيل هو مصدر مياه الري الوحيد في مصر تقريباً ، فاذا قصر
عن الوفاء فات أوان الزراعة ، وإذا زاد عن حده العادي أغرق البلاد ، وتأخرت الزراعة .
وقد أدرك المعاصرون هذه الحقيقة جيداً وأجملها المقريري فيما أورده على لسان بعض
الحكماء « . . . لولا ما جعل الله في نيل مصر من حكمة الزيادة في زمن الصيف
على التدرج حتى يتكامل ري البلاد ، وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة لفسد إقليم
مصر وتعذر سكناه ، لأنه ليس فيه أمطار كافية ، ولا عيون جارية تعم أرضه
إلا بعض إقليم الفيوم . . . » (١) .

وحين يقل ماء النهر عن الحد اللازم للزراعة ، يقلق الناس وتنتابهم المخاوف من
حدوث المجاعة نتيجة لعدم زراعة المحاصيل الجديدة ، ومن ثم يسارعون لتخزين
الغلال التي لديهم ضماناً لقوتهم وقوت عيالهم أثناء الأزمة المتوقعة ، كما يسارع
التجار إلى تخزين الغلال طمعاً في الحصول على أرباح أكثر عن طريق رفع الأسعار ،
ونتيجة لهذا يشتد الإقبال على شراء الغلال بينما يقل المطروح من البضائع في الأسواق

(١) المقريري : الخطط ج ١ ص ٦٢ .

ويشتد تراحم الناس على الأفران ، وحوانيت بيع الغلال ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال تصعيد خطير في الأسعار ، ويظهر إلى الوجود ما نعرفه اليوم باسم « السوق السوداء » على حد تعبيرنا المعاصر ، وتمتد حمى الأسعار « إلى كل ما يباع ويشترى من مأكول ومشروب وملبوس . . . »^(١) ، ويؤدي ذلك بدوره إلى ارتفاع أجور العمال أو « أرباب المهن والصنائع » على حد تعبير مؤرخي ذلك العصر . وكان هبوط مياه النيل وتعطل الزراعة كارثة قومية تقض مضاجع كل الطبقات ، فتضطرب أحوالهم ، ويعظم خوفهم ويشتد بكائهم ، وضجيجهم في الأسواق . . .

وبطبيعة الحال كان عدد الفقراء يتزايد عقب أمثال هذه المجاعات إذ يضطر الناس لبيع ممتلكاتهم لشراء ما يقتاتون به ومن ثم يدخلون في عداد المعدمين^(٢) بينما تزدحم العاصمة بالوافدين من القرى بحثاً عن الطعام الذي يوزع في القاهرة أحياناً خلال هذه الأزمات^(٣) .

وبالإضافة إلى هذه الفوضى الاقتصادية ، كانت مقدرات الدولة السياسية ترتبك من جراء ذلك في غالب الأحوال ، فتثور الفتن بين أمراء المماليك من ناحية ، بينما يشتد ظلم الولاة وعسفهم من ناحية أخرى^(٤) .

وقد عاصر بيلوتى الكريتى - الذى زار مصر في مطلع القرن الخامس عشر الميلاد إحدى هذه المجاعات وقد مات فيها - على حد قوله - عدد لا يحصى^(٥) .

وعلى كل حال فإن الصورة القاتمة لحال البلاد إبان هذه المجاعات والتي أسهب المؤرخون المعاصرون في وصفها تدلنا بوضوح على ما يمكن أن يصيب الناس إذا هبط النهر عن حد الفيضان . والواقع أن مصر تعرضت لعدة مجاعات لدرجة أن محاولة سردها جميعاً قد توقعنا في منزلق التكرار الممل ، ومن ثم سنعرض لأهم هذه المجاعات :

(١) المقرئى : إغاثة الأمة ص ٤١ - ٤٣ .

(٢) أبوالمحسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١٨/٢١٩ .

(٣) المقرئى : إغاثة الأمة ص ٣٣ - ٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٧/٣٨ .

(٥)

أول مجاعه أو « غلاء » نسمع عنه في عصر سلاطين المماليك هو الذي حدث سنة ٦٦٢ هـ . في عصر السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى^(١) إذ توقفت زيادة النيل وتبع ذلك ارتفاع أسعار الغلال ، وقل الخبز في أسواق القاهرة وضواحيها وكاد أن يختفى ، وأكل الناس حشائش الحقول وأوراق اللفت والكرنب ، واستمرت الأسعار في تصاعدها حتى دخلت السنة الجديدة بمحصولاتها ، فأخذت الأسعار في الهبوط وزالت الأزمة .

ولكن هذه الأزمة لم تكن شيئاً يذكر إذا قورنت بالمجاعة التي ألت بالبلاد فيما بين عامي ٦٩٤ - ٦٩٥ هـ أثناء حكم السلطان العادل كتبغا^(٢) فقد توقفت زيادة النيل وحلت بالبلاد كارثة المجاعة التي أعقبها الوباء الذي أسكن الألوف التراب ، وكانت الصورة قائمة للغاية إبان هذه المجاعة « . . . فقد كثر الشح ، ووقفت الأحوال واشتد البكاء ، وعظم الضجيج في الأسواق من شدة الغلاء . . . » ، ووصل الأمر بالناس إلى أكل الكلاب والقطط والحمير والبغال « . . . ولم يبق عند أحد شيء . . . » . وقيل أن الكلب السمين صار يباع بخمسة دراهم ، القطعة بثلاثة دراهم^(٣) . وليت الأمر اقتصر على ذلك فقد تساقط الناس جرعى الجوع في الطرقات ، وجافت الطرق بجثث الموتى فانتشر الوباء الذي قضى على عدد كبير من جمهرة السكان .

وقد عاصر ابن أبيك الدوادارى هذه المجاعة وأورد لنا وصفاً لبعض أحداثها فقال « . . . كان يقول الإنسان الفقير لبابة لله ، لبابة لله ويموت مكانه ، وعادوا يخرجون إلى الكيمان يلتقطون ما يكون مدفوناً بها من حبة قمح أو شعير أو فول أو ما أشبه ذلك ، ولقد نظرت بعيني برّاً باب البرقية ظاهر القاهرة في الخندق برّاً السور جماعة كبيرة شبه الوحوش الضارية قد تغيرت عنهم معالم الإنسانية ، وكل جماعة عندهم قدر ينتظرون الميئات التي تخرج وترى بكيمان البرقية فيأخذونها بالضراب بينهم من

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١٣ ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٢ هـ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٠٦ إلا أن النويرى يذكر أنها حدثت سنة ٦٦١ هـ (نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٢٧ مخطوط) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨١٤ ، إغاثة الأمة ص ٣٢/٣٣ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٨٢ ، ابن أبيك الدوادارى : كنز الدرر ج ٨ ص ٣٨٩ ، ص ٣٩٠ .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٣/١٣٤ (ط . بولاق) .

قوى على صاحبه فيطبخونها ويأكلونها...»^(١) ويستطرد ابن أبيك فيحدثنا أن الناس صارت تأكل القطط والكلاب ، بل صار الناس يأكلون بعضهم بعضاً ويأكلون الأطفال أيضاً...^(٢) ورغم تحفظنا في قبول مثل هذه الأقوال وتناولنا لها في حذر لما قد يكون فيها من المبالغة إلا أنها في النهاية تعطينا انطباعاً عن ما يمكن أن تصير إليه الأمور أثناء هذه الأزمات .

وفي سنة ٧٠٩ هـ (عصر السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير) حدثت مجاعة عقب توقف مياه النهر عن الزيادة في موسم الفيضان ، ولكنها كانت أخف وطأة من المجاعة التي حدثت في عهد السلطان كتبغا ، ولكنها مع ذلك كانت من بين أسباب فشل حكم بيبرس الجاشنكير الذي تشاءم الناس بحكمه الذي لازمه هبوط مياه النهر والغلاء^(٣) .

وفي عام ٧٣٦ هـ عقب نقص مياه نهر النيل ، عز وجود القمح في البلاد المصرية ، وبدأ الناس يتزاحمون على الأفران طلباً للخبز ، بل انهم كانوا يقتتلون على أبواب الأفران وينهبون الخبز أثناء دخوله إلى الفرن أو خروجه منه ، مما اضطر الوالى إلى تعيين حراسة على كل حانوت يبيع الخبز .

وجاء الوباء الرهيب الذى عم أنحاء المعمورة ما بين عامى ٧٤٩ - ٧٥٠ هـ . ابتداء بالشرق الأقصى وانتهاء بمصر وأوربا ، وقد عرفه المؤرخون العرب باسم « الفناء الكبير » بينما اطلق عليه مؤرخو أوربا اسم « الموت الأسود Black Death » ، وكان طبيعياً أن تصحب هذا الوباء الرهيب مجاعة استمر أثرها قائماً حتى عام ٧٥١ هـ^(٤) إذ اشتدت الأزمة على الناس بسبب هبوط نهر النيل ، وتناقص عدد الفلاحين إلى ندرك رهيب بسبب « الوباء الأسود » الذى قضى على عدد كبير منهم مما سبب استمرار الاضطراب الاقتصادى فى مصر فترة غير يسيرة .

وتتوالى سنوات القحط والمجاعات على مصر بكثرة طوال عصر سلاطين المماليك ،

(١) ابن أبيك : كنز الدرر ج ٨ ص ٣٨٣ .

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ، المقرئى السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨١٤ .

(٣) المقرئى السلوك ج ٢ ق ١ ص ٥٥ ، ابن أبيك الدر الفاخر ص ١٦٦ .

(٤) المقرئى : إغاثة الأمة ص ٣٩ .

وقد عاصر المؤرخ تقي الدين المقرئى إحداهما وهى المجاعة التى ألت بالبلاد - بصورة متقطعة - ما بين عامى ٧٩٦هـ و ٨٠٨هـ^(١) وقد هاله ما شاهده أثناء هذه المجاعة ولمس بنفسه أسبابها الحقيقية، فأفرد كتاباً - لعله الوحيد من نوعه بين مؤلفات ذلك العصر - عرض لأهم المجاعات حتى عام ٨٠٨هـ ، وتعرض فيه لأسباب هذه المجاعات والوسائل التى كان السلاطين يلجأون إليها لمواجهة هذه المجاعات ، وقد بدأت هذه المجاعة عام سنة ٧٩٦هـ حين توقف النيل عن الزيادة ولم يوف ، فشرقت أكثر الأراضى ولم تزرع ، وقد أدرك المقرئى حقيقة هامة مؤداها أنه « . . . إذا تأخر جرى النيل بمصر يمتد الغلاء سنين . . . » ، ذلك أن الناس تضطر لأكل المخزون من الغلال القديمة ، التى تستخدم أحياناً فى زراعة المحاصيل الجديدة فى حالة وفاء النيل ، ويأتى عام آخر ليجد أن التقاوى قد استهلكت. وهكذا كان تأخر الفيضان سنة ما يؤدى بالتداعى إلى سلسلة من سنوات القحط والمجاعة ، وبالفعل فقد استمرت هذه المجاعة عادة سنوات بصورة متقطعة ما بين عامى (٧٩٦ - ٨٠٨هـ) فارتفعت أسعار كل شئ وبالتالى ارتفعت أجور العمال وأرباب المهن والصنائع . وحين فاض النهر سنة ٨٠٨هـ ، لم يجد الناس البذور اللازمة للزراعة لأن الدولة كانت تحتكر تجارة الغلال للتحكم فى الأسعار ومن ثم « . . . تفاقم الأمر ، وجل الخطب ، وعظم الرزء ، وعمت البلية وطمت . . . » وقد مات أكثر من نصف سكان مصر خلال هذه الأزمة ، ونفقت الماشية والحيوانات ، واستمرت الأزمة ناشبه أظفارها فى البلاد حتى عام ٨٠٨هـ ، وقد أرجع المقرئى سبب هذه الحال الرهيبة إلى « . . . سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد . . . »^(٢) .

أثر المجاعات فى حياة الناس اليومية :

من الطبيعى أن يكون لهذه المجاعات أثرها فى أخلاقيات الناس وفى تصرفاتهم اليومية فى أثنائها « ينكشف حال كثير من الناس » ، وتشح النفوس بسبب قلة الطعام فيمنع أكابر الأمراء من يدخل عليهم من الأعيان عند مد أسنطتهم^(٣) بينما يتصارع

(١) المرجع السابق ص ٤١ - ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤١ - ٤٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٢٨ .

عامة الناس في سبيل الحصول على القوت، فيتزاحمون على الأفران وحوانيت الخبز والدقيق، ويقتتلون في سبيل الحصول على شيء منه وتتوقف مظاهر حياتهم، ويتعطل البيع والشراء، ويتوجه بعضهم إلى الأفران من منتصف الليل، بينما يتوجه البعض الآخر إلى ساحل النيل في بولاق في محاولة للحصول على بعض القمح «... فمنهم من يجد بعض شيء ومنهم من يرجع خائباً...»^(١) وفي أثناء التزاحم على الأفران ينهب الناس الخبز جهراً، بل إن الناس كانوا يختطفون العجين إذا خرج إلى الفرن، ولهذا كان العجين يرسل إلى الفرن في حراسة عدد من الأفراد المسلحين بالعصى «لحمايته من النهابة» ولكن الجوع كان يدفع ببعض الناس إلى إلقاء أنفسهم على الخبز دون أن يبالي الواحد منهم بما ينال رأسه وبدنه من الضرب «... لشدة ما نزل به من الجوع...» وفي مثل هذه الأحوال كان المحتسب أو الوالي أو ممثل الدولة يضطر لتعيين الحراسات على أبواب الأفران وحوانيت الخبز، ومعهم العصي الغليظة لدفع الناس عن حوانيت الخبز خوفاً من النهب^(٢).

أما المراكب التي تحمل الغلال من الوجه القبلي أثناء هذه المجاعات فكانت — حين تصل إلى ساحل بولاق — تربط بالمرسى بعيداً عن الشاطئ خوفاً من النهب، ويتوجه من يريد الشراء في القوارب الصغيرة وأثناء تصارع الناس وتزاحمهم لشراء القمح كانت تقع بعض الحوادث من ذلك ما حدث أثناء مجاعة سنة ٨١٨ هـ إذ ماتت امرأة ورجل أثناء التزاحم على المركب التي تحمل الغلال في ساحل بولاق، ومحاولة الأمير إينال العلائي المحتسب دفعهم بعيداً عن المركب^(٣).

وكان بعض التجار يلجأ إلى أساليب الغش أثناء هذه الأزمات، فيخلطون الدقيق بغيره من المواد كما حدث أيام الناصر محمد بن قلاوون أثناء مجاعة سنة ٧٣٦ هـ^(٤) «... إذ أصبح الخبز كالكسب من السواد...»^(٤) كما كان البعض الآخر يبيعون لحم الميتات والكلاب للناس كما حدث سنة ٨٥٥ هـ حين قبض على جماعة يبيعون

(١) العيني : عقد الجمان ج ٥ ورق ٤١٤ (مخطوط) ، ابن حجر : إنباء الغمر ج ٢ ورقة ٨٥ (مخطوط).

(٢) المقرئ : إغاثة الأمة ص ٣٣ - ٣٥ ، ص ٣٩ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٤١٤ .

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر ج ٢ ورقة ٩٢ .

(٤) المقرئ : إغاثة الأمة ص ٣٩ .

لحوم الدواب الميتة ، ولحوم الكلاب ، فشهبوا بالقاهرة^(١) .

وبطبيعة الحال كان عدد الفقراء يتزايد بسبب هذه الأزمات ، ومن الطريف أن بعض الناس كان يدعى الحاجة والفقر حتى ينال حظه من الصدقات التي كانت توزع في أوقات المجاعات ، فقد ذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى أنه أثناء الغلاء الذي ألم بالبلاد سنة ٨٥٥هـ « . . . تمفقروا خلائق كثيرة ممن ليس لهم مروءة »^(٢) .

ومن الطبيعي أن يلجأ التجار إلى استغلال ظروف الأزمة أو المجاعة فيرفعون السعر ، وتزداد أرباحهم زيادة فاحشة ، فقد بلغت أرباح الواحد من التجار أثناء مجاعة ٦٩٤ - ٦٩٥هـ في عهد السلطان العادل كتبغا ، ما بين مائة ومائتي درهم^(٣) وحدث سنة ٧٩٨هـ أن ارتفعت الأسعار بسبب قصور النيل ، وقل الخبز حتى اقتتل الناس على أبواب الأفران في القاهرة وظواهرها ، ثم وصلت مراكب الغلال من الوجه القبلي إلى ساحل بولاق فهبطت الأسعار ولكن التجار الذين أتوا بالقمح أدركوا أنهم سيخسرون إذا باعوا بهذه الأسعار « . . لأنه لم يحصل لهم رأسمالهم وما غرموه في السفر . . » فامتنعوا عن البيع وواصلوا إبحارهم شمالاً تجاه الإسكندرية ، ومن ثم اشتدت الأزمة ثانية ، وقل الخبز ، واضطربت الأحوال^(٤) وحين توقف النيل عن الزيادة عام ٧٨٩هـ قبض تجار القمح أيديهم البيع ، وأكثروا من التخزين طمعاً في زيادة أرباحهم عن طريق رفع الأسعار ، ولكن النيل أوفى فهبطت الأسعار « فخاب ظنهم وما أملوه »^(٥) . وكانت أجور العمال في شتى المهن ترتفع تبعاً لارتفاع الأسعار ، فقد حدث سنة ٨٠٦هـ أن امتدت حمى الأسعار لتشمل كل شيء فارتفعت أجور « . . البنائة والفعلة ، وأرباب الصنائع والمهن تزايداً لم يسمع بمثله فيما قرب من هذا الزمان . . »^(٦) كذلك كانت أرباح العطارين والأطباء تتعاظم أثناء المجاعات والأوبئة نظراً لاشتداد الطلب على الأدوية والأطباء ، ففي أزمة (٦٩٤ - ٦٨٥هـ) بلغت مبيعات أحد العطارين من

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١٨ - ٢١٩ (ط . كاليفورنيا) .

(٢) المرجع السابق : نفس الجزء والصفحة .

(٣) المقرئى : لغثة الأمة ص ٣٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٤٣٤ ص ٤٣٥ (المجلد الأول) .

(٥) المرجع السابق ج ٩ ص ٩ (المجلد الثانى) .

(٦) المقرئى : لغثة الأمة ص ٤١ - ٤٣ .

من الأدوية في يوم واحد اثنان وثلاثين ألف درهم كذلك بلغ متوسط المكسب اليومي للطبيب حوالى مائة درهم^(١) .

ونتيجة لارتفاع الأسعار وانعدام الأقوات في أثناء الغلاء أو المجاعة ، تتوالى — بالتداعى — حوادث أخرى تزيد الطين بلة ، إذ ينعدم علف الحيوان بسبب ارتفاع الأسعار ، ومن ثم تنفق الماشية والأبقار وحيوانات الزراعة . ولما كانت هذه الحيوانات هي القوة المحركة للمعول عليها في ذلك العصر لبناء الجسور وسائر أعمال ضبط النهر فإنه نتيجة لموتها تتوقف أعمال صيانة الجسور وأعمال الري ، بجانب الأعمال الزراعية التي يعتمد فيها على الحيوان ، وبالتالي تتوقف سائر مصالح البلاد ، مثال ذلك ما حدث سنة ٨٥٣هـ إذ مات عدد كبير من الأغنام والأبقار لعدم توافر علف الحيوان ، فارتفعت أسعار هذه الحيوانات وتعطلت أعمال صيانة الجسور في كثير من النواحي^(٢) .

وثمة سبب آخر لحدوث الغلاء أو ازدياد حدته هو هبوط المياه إلى الحد الذي يقلل من حركة الملاحة في نهر النيل وينتج عن ذلك قلة مجيء مراكب الغلال من الوجه القبلى مما يؤدي بدوره إلى ارتفاع الأسعار وقلة الحبز^(٣) .

وكانت سوق النقد تتأثر بحاله الفيضان أيضاً ، وما ينتج عنه من تذبذب في الأسعار فيكثر غش النقود كما حدث أثناء المجاعة التي حدثت في عهد السلطان العادل كتبغا^(٤) ، كذلك حدث سنة ٨٠٥هـ — عقب نقص مياه النيل — أن ارتفعت الأسعار جداً ، وارتفع سعر الذهب أيضاً^(٥) .

أسباب أخرى للأزمات الاقتصادية :

لم يكن « الغلاء » أو المجاعة ، وما يتبعها من مظاهر الفوضى الاقتصادية ناجمة في كل الأحوال عن هبوط النهر أو عن غرق الأراضي الزراعية إذا زاد النيل زيادة مفرطة ، ولكن هناك أسباباً أخرى منها حالة البلاد السياسية ، وسوء التدبير من جانب

(١) المرجع السابق ص ٣٥/٣٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢ (ط . كاليفورنيا) .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ / ٣ ص ٧٢٨ .

(٤) المقرئى : إغاثة الأمة ص ٣٧/٣٨ .

(٥) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ١٩٨ (مخطوط) .

بعض السلاطين أحياناً ، واضطراب الأمن في البلاد بسبب الحروب بين طوائف المماليك من جهة ، وفساد العربان من جهة أخرى . . وما إلى ذلك من الأسباب .

فقد كان من بين أسباب تفاقم الأمور أثناء مجاعة . (٦٩٤ - ٦٩٥ هـ) أن الأهراء والشون السلطانية^(١) كانت خالية من الغلال عندما توقفت زيادة النهر ذلك لأن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون كان قد فرق الغلال على الأمراء قبل موته ، ولما حلت بالبلاد الأزمة الناتجة عن قصور النيل ، لم يجد وزير الدولة شيئاً مخزوناً ، فاضطر لشراء الغلال للمثونة والعليق ، فارتفعت الأسعار تبعاً لذلك^(٢) .

كما أن انعدام الأمن كان يسبب حدوث هذا الاضطراب الاقتصادي في أحيان كثيرة ، فترتفع الأسعار ويحل الغلاء بالبلاد ، فقد ألت بمصر شدة عظيمة سنة ٨١٨ هـ ، وذلك رغم « . . . وجود الغلال وزيادة الماء ، وكثرة الزرع . . . » وكان سبب ذلك « .. كثرة الفتن بضواحي مصر من العربان ، وخروج العساكر مرة بعدة مرة ، وفي كل مرة يحصل الفساد في الزرع ويقل الأمن في الطرقات ، فلا يقع الجلب كما كان . . . »^(٣) ونتيجة لعدم ورود الغلال ترتفع الأسعار ويحل « الغلاء » .

علاوة على ذلك فإن النيل لم يكن دائماً طريقاً مأموناً للتجارة ، فان قراصنة النهر كثيراً ما كانوا يهاجمون المركب والسفن النيلية التي تحمل الغلال وغيرها من البضائع إلى القاهرة ، ومن ثم يتخوف التجار فيمتنعون عن جلب تجارتهم إلى القاهرة فترتفع الأسعار ، ويختفى الخبز من الأسواق ، ونسوق مثالا لذلك ما حدث سنة ٨٢٢ هـ إذ ارتفعت الأسعار وحل الغلاء بالبلاد ، بسبب « . . . كثرة الحرامية في النيل فقل الجلب من الوجه القبلي^(٥) » .

(١) الشون : هي مخازن الأخشاب والغلال والأتبان وما إلى ذلك ، والأهراء يوضع بها ما يخزن من الغلال المتنوعة التي لا تفتح إلا عند الضرورة ولها مركب تعرف باسم « الدردمونة » قيل أن سعتها خمسة آلاف أردب تحمل إليها الغلال وهي كبيرة جداً ، وكانت هناك مركب أخرى كثيرة غير هذه المركب تحول الغلال وتفتح الأهراء من حين إلى حين ويصرف منها ما يقتضى صرفه (ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٢ ، ١٢٣) .

(٢) النویری نهاية الأرب : ج ٢٩ ورقة ٨٢ (مخطوط) ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٩٧ .

(٣) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ورقة ٨٤ (مخطوط) .

(٤) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ورقة ١٤٦ (مخطوط) .

وكانت الفتن والمنازعات الداخلية وحروب الشوارع بين طوائف المماليك - لاسيما في الطور الأخير من ذلك العصر - تسهم بشكل أو بآخر في خلق هذه الفوضى الاقتصادية ، فإن مجرد الإرجاف بإشاعة موت أحد السلاطين ، أو ركوب الأمراء بالسلاح للاقتتال ، كان يسبب فزعاً شديداً للناس فترتبك أحوالهم وتغلق الأسواق والدكاكين ، وتقفر الطرقات من المارة ، ويلزم الناس بيوتهم ، وتبدو المدينة آنذاك كما لو أن أهلها هجروها فجأة ، من ذلك ما حدث سنة ٦٩٣هـ حين وردت الأخبار بمقتل الأشرف خليل بن قلاوون فقد نزلت الطرقات تماماً من الناس الذين فروا إلى بيوتهم ، وأخلوا طرقات المدينة لتكون ميداناً للاقتتال المنتظر بين طوائف المماليك ، وبطبيعة الحال اختفى الخبز وقلت الأقوات « . . . وقاس الناس شدة عزيمة . . . »^(١) ومثال آخر هو ما حدث سنة ٨٠٢هـ ، وبينما الناس في المساجد والجموع يستعدون لأداء صلاة الجمعة انطلقت اشاعة مؤداها أن المماليك قد ركبوا بالسلاح لمحاربة بعضهم بعضاً وبسرعة ساد الارتباك كل مظاهر الحياة في القاهرة وضواحيها وأغلقت أبواب الجوامع ، وفي بعض الجوامع اختصرت الخطبة ، وألغيت تماماً في بعضها الآخر بل أن الصلاة نفسها ألغيت في عدد من الجوامع ، وخرج الناس مذعورين خوفاً من النهب وأسرعوا إلى بيوتهم ، ومن ثم أغلقت الأسواق والخوانيت ، وتلى ذلك الغلاء وانعدام الخبز والأسواق^(٢) .

وثمة أسباب أخرى غير ما أوردناه كانت تتسبب في وجود الغلاء والجماعات ، منها سياسة الاحتكار التي سارت عليها الدولة في ذلك العصر فقد كانت الدولة تحتكر تجارة الغلال ، ويبيعها الأمراء للناس بما حددوا من الأثمان ، ومن ذلك أيضاً « زكاة الغلال » . (أى توفيرها في شئون السلطان والأمراء على حساب العامة) كما أن سوء تدبير الحكام وإغفالهم مصالح الناس كان من بين الأسباب التي تخلق هذه الأزمات^(٣) ، زد على ذلك أن الرشوة انتشرت بين المماليك ومن ثم كان الولاة والحكام يضعون نصب أعينهم أن يعوضوا ما دفعوه من هذه الرشاوى قبل توليهم الوظائف ومن ثم يكثر طمعهم في أخذ أموال الناس^(٤) .

(١) ابن أبيك : كنز الدرر ج ٨ ص ٣٧٢ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ / ق ٣ ص ١٠١٨ - ١٠١٩ .

(٣) المقرئى : إغاثة الأمة ص ٤١ - ٤٣ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ / ق ٣ ص ٨٣٣ .

وفي النهاية تجتمع كل هذه العوامل ليضطرب كل شيء ، ونستعير كلام المقریزی في هذا المقام ليعبر عن الحال التي كانت تسود البلاد إبان هذه الأزمات إذ يقول « . . ونحن الآن في أول سنة ٨٠٨ هـ والأمر فيها من اختلاف النقود ، وقلة ما يحتاج إليه ، وسوء التدبير ، وفساد الرأي في غاية لا مرمى وراءها من عظيم البلاء ، وشنيع الأمر . . »^(١) .

عرض لأهم الأوبئة والطواعين :

في كثير من الأحيان يكون الغلاء أو المجاعة سبباً في انتشار الأوبئة والطواعين أو تكون المجاعة نتيجة لهما في أحيان أخرى ، وربما يواكب كل منهما الآخر ، ولدينا من الأمثلة على ذلك الكثير ، وسنكتفي هنا بإيراد بعض الأمثلة للتدليل على ذلك . أول الأوبئة التي ألت بمصر زمن سلاطين المماليك هو الذي حدث سنة ٦٧٢ هـ وقد أهلك عدداً كبيراً من السكان أكثرهم من النساء والأطفال^(٢) .

وتأتى مجاعة (٦٩٤ - ٦٩٥ هـ) والوباء الرهيب الذي صاحبها كمثل واضح على ما يمكن أن يصيب الناس والبلاد إذا حلت كارثة من هذا النوع^(٣) فقد توقف نهر النيل عن الزيادة وأعقب ذلك أن حدثت المجاعة ومات بسببها الآلاف جوعاً ، وانتشرت جثثهم في كل مكان . ونتج عن ذلك انتشار الوباء ، وصار الناس يتساقطون صرعى الجوع والوباء في كل مكان وامتألت الطرقات والحقول وصفحة النهر ، والترع بجثث الموتى تنهشها الكلاب التي كانت تقتل بدورها كى يأكلها الأحياء من الناس وتزايد عدد الموتى حتى بلغ عددهم سبعة عشر ألفاً وخمسمائة في ذى الحجة سنة ٦٩٤ هـ علاوة على الفقراء والغرباء وهم أضعاف ذلك العدد . . . ولم يجد الموتى من يدفنهم « . . . لاشتغال الأصحاء بموتاهم والسقماء بأمراضهم . . » ، ونتج عن هذه المجاعة الرهيبة والوباء المروع الذي صاحبها أن خلت القرى من سكانها لدرجة أن القرية التي كان بها مائة شخص لم يتخلف بها « إلا حوالى العشرين » وكان ،

(١) المقریزی : إغاثة الأمة ص ٤٣ .

(٢) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٦١٢ ، تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ١٠ ، البعني : عقد الجمان

ج ٢٣ ورقة ٥٨٨ (مخطوط) .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٤١ ،

المقریزی : السلوك ج ١ ص ٨٠٨ / ٨١٥ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٨٤ / ٨٢ (مخطوط) .

أكثرهم يوجد في الحقول وفي مزارع الفول ميتاً . . لا يزال يأكل منه إذا وجدته حتى يموت ولا يستطيع الحراس ردهم لكثرتهم . . »^(١) .

وقد أدت هذه المجاعة والوباء إلى تناقص رهيب في عدد السكان كما سببت اضطراباً شديداً في أحوال الدولة ، فقد « ظهر الخلل بالدولة ، لقلة المال وكثرة النفقات . . »^(٢) وكانت هذه الأزمة من أهم أسباب فشل حكم العادل كتبغا الذي فسر الناس هذه الأحداث في ضوء ما اعتقدوه من سوء طالعته وعجزه عن تدبير أمور الدولة .

وشهدت الفترة ما بين عامي ٦٩٥ ، ٦٤٩ هـ عدة أوبئة كان سببها في غالب الأحوال توقف نهر النيل عن الزيادة أثناء موسم الفيضان^(٣) .

وجاء عام ٧٤٩ ليشهد ذلك الوباء الرهيب الذي اجتاحت الأرض من أقصاها إلى أقصاها مكتسحاً في طريقه كل بقاع الأرض من مشارق آسيا حتى أوروبا ، وقد عرف هذا الوباء باسم « الفناء الكبير » وهو نفسه « الوباء الأسود Black Death » الذي عرفه مؤرخو أوروبا . وقد جاء نتيجة انتشار بعض الأمراض الوبائية من الهند والشرق الأقصى إلى مصر وأوروبا وقد أفاض المؤرخون في وصف أهوال هذا « الفناء الكبير »^(٤) .

كان من أعراض هذا المرض الوبائي أن يبصق الإنسان دماً ثم يصيح ويموت وبدأ يحل بالبلاد في خريف عام ٧٤٨ هـ ثم اشتدت وطأته مع بداية عام ٧٤٩ هـ ، واستمر ينشب مخالفه في البلاد حوالي عامين وتراوح عدد ضحاياه ما بين عشرة آلاف إلى عشرين ألف نسمة يومياً . . . وعملت التوابيت والدكك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجر . . . » وتزايد عدد الموتى حتى صاروا يحملون على السلالم وألواح الخشب والأبواب وما إلى ذلك . . وانقطع جماعة لتغسيل الموتى ، كما انقطع جماعة آخرون للصلاة عليهم ، وكان الموتى يدفنون جملة في حفرة واحدة .

(١) المقرئى : إغاثة الأمة ص ٣٥ / ٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ / ٣٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ / ق ٣ ، ابن أبيك : الدر الفاخر ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٧٠ ، ٣٤٩ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٠٤ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٢١ ، المعينى : عقد الجمان ج ٢٤ حوادث سنة ٧٤٩ هـ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٣ ص ٣٠٣ .

وقد شمل هذا الوباء كل شيء ، فقد امتد أثره إلى « . . حيتان البحر وطيور السماء ، ووحش البر . . . » كذلك فسدت الزراعات بفعل تواجد الدود فيها ، وتسممت الأسماك في النهر والترع والبحيرات .

وكان طبيعياً آنذاك أن ينشغل الناس بهذا الوباء عن سائر اهتماماتهم وألا يكون بمقدورهم مزاولة أعمالهم اليومية ، فلم تجد الأرض من يزرعها ، كما لم تجد المحصولات من يضمها لكثرة الموتى بين الفلاحين ، وتوقفت أعمال الصيد إذ كان الصيادون يخرجون بمراكبهم للصيد فيموت بعضهم أثناء الرحلة ، ويموت الباقون بعد العودة ، « وعدمت جميع البضائع . . » وركدت الحياة تماماً ، وتعطلت أحوال الناس ولم يجد الولاة والقضاة عملاً يشغلهم كذلك لم تجد الفنادق من ينزل بها ، وزهد الناس في أموالهم وبذلوها للفقراء ، وكان المشهد متكرراً في كل أنحاء البلاد تقريباً .

وامتألت الطرقات والمساجد والبيوت بجثث الضحايا من الآدميين ، وكان الوباء فتاكاً لدرجة أن الأدوية لم تعد تجدى نفعاً ، وذلك « لسرعة الموت » ، وقد قضى هذا الوباء على كثيرين من أجناد الحلقة وخلت أطباق القلعة من المماليك لموتهم ، وصار الموت يطالع الناس في كل الطرقات « . . . فلا تجد بيتاً إلا وفيه صبيحة ، ولا تمر بشارع إلا وفيه عدة أموات . . . »^(١) .

وقد قضى الوباء على حوالى ثلثي جمهرة السكان آنذاك^(٢) ، وأقفرت المدن وخلت القاهرة من الناس وهرب السلطان ومن استطاع اللحاق به إلى سرياقوس ، وأصبحت الأملاك تنتقل بطريق الوراثة ما بين أكثر من خمسة أو ستة أشخاص في اليوم الواحد بسبب سرعة توالى أحداث الموت ، واستولى كثيرون من العامة على إقطاعات أجناد حلقة^(٣) .

ونظراً لموت هذا العدد الكبير من الناس انخفضت أسعار الغلال والأقمشة وسائر البضائع بدرجة كبيرة ، ولم تجد الغلال من يطحنها^(٤) بل أن كتب العلم

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٠٥/٢٠٩ .

(٢) العيني : عقد الجمان : ج ١٤ حوادث سنة ٨٧٤٩ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ص ٢٠٥/٢٠٩ .

(٤) Muir (W.) : The Mameluke : p. 94, Lane, Poole : A Hist. p. 319. (٤)

رخصت لدرجة أنه كان ينادى عليها بالأحمال « . . . وبيع الحمل منها بأرخص ثمن كذلك هبطت أسعار الذهب والفضة » .

وفى عام ٧٥٠ هـ حاول الأمير منجك اليوسفى حصر الأملاك التى مات أصحابها « . . . فكان يوجد بالحارة الواحدة ما يزيد على عشرين دار خالية لا يعرف أربابها ، فختموا على الموجود من الدور والفنادق والحانات حتى يحضر أصحابها^(١) . . . »

ثم أخذ الوباء يتناقص فى عام ٧٥٠ هـ وما لبث أن ارتفع نهائياً ، ولكن آثاره ونتائجه ظلت متواجدة بعد ذلك مدة غير قصيرة ، وحين جاء عام ٧٥١ هـ توقف نهر النيل عن الزيادة ولم يبلغ حد الوفاء فشقت أراض كثيرة ، وتوالى قصور النيل سنوات ثلاث اشتدت فيها المحنة ، وزاد من وطأتها ذلك النقص الرهيب فى عدد الفلاحين نتيجة لهذا « الفناء الكبير » ومن ثم ازداد الاضطراب الاقتصادى بسبب عدم زراعة الأراضى .

وبعد هذا الوباء المروع تعرضت البلاد لعدة أوبئة حتى جاء عام ٧٧٦ هـ وتوقف زيادة نهر النيل وتبع ذلك الفوضى المألوفة ، وماجت القاهرة بجموع الناس المدعورين توقعاً لحظر المجاعة ، التى جاءت فعلاً لتصرع الكثيرين وتبع ذلك انتشار الوباء وانتشرت جثث الضحايا فى كل مكان ، وقد عاصر المؤرخ تقي الدين المقرئى هذه المجاعة ووصفها كما وصفها غيره من المؤرخين^(٢) وقد بلغ عدد ضحايا هذه المجاعة والوباء المصاحب لها فى اليوم الواحد نحواً من خمسمائة نسمة من الحشريين وحوالى ألف نسمة من الطرحاء^(٣) .

ولعل أشهر طواعين الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك هى الطواعين الثلاثة التى شهدتها عهد السلطان الأشرف قايتباى ، وكان آخرها سنة ٨٩٧ هـ وقد قضى

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) المقرئى : إغاثة الأمة ص ٤٠ - ٤١ ، السلوك ج ٣ ص ١٢٥ ، ابن حجر أنباء الغمر ج ١ ص ٤٤ ، العيى : عقد الجمان ج ٢ ص ١٨٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٦٦ .

(٣) الحشرية : هم الذين توفوا ولم يكن لهم وارث شرعى ، ومن ثم تحول لم أملاكهم إلى ديوان المواريث الحشرية ، أما الطرحاء (ومفردا طريح) وهو الميت المتروك المهمل (النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٦٦) .

أحد هذه الطوائع على حوالى مائتى ألف شخص ، وهلك فيه ثلث المماليك تقريباً بل أن السلطان نفسه حرم من ابنته وزوجته فى يوم واحد وصاحب هذه الطوائع مجاعة رهيبة أمسكت بخناق الناس ، كذلك اجتاحت الماشية وباء رهيب قضى على عدد كبير منها ، بينما انفجر صراع بين طائفتين من المماليك ليزيد من حدة البؤس السائد فى البلاد^(١) .

ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن سلسلة الطوائع والأوبئة والمجاعات التى تعرضت لها مصر فى تلك الفترة التاريخية طويلة ومتتالية ومتقاربة فى بعض الأحيان بحيث يصعب الحديث عن كل منها على حدة ، ومن ثم فقد ألحقت بهذا البحث ثبناً بهذه الأوبئة والمجاعات ويلاحظ من تتبعها أن غالبيتها العظمى حدث نتيجة لتوقف زيادة نهر النيل إبان موسم الفيضان ، وما يتبع ذلك من تأخر الزراعة فارتفاع الأسعار ثم حدوث المجاعة التى تقتل الكثيرين جوعاً ، وتمتلىء البلاد بهذه الجثث التى تجيف فتنتشر عن طريقها الأمراض الوبائية لتسكن الألوف التراب ، وتؤكد ملامح الصورة القائمة لحياة جماهير المصريين فى ذلك العصر الزاخر بالأحداث من ناحية وبمظاهر الفخامة والأبهة التى أستاثر بها سلاطين المماليك من ناحية أخرى .

موقف الدولة من هذه الأزمات :

حقيقة لم يكن الناس يملكون إزاء هذه الكوارث سوى الاستسلام انتظاراً لارتفاع الطاعون عنهم تلقائياً ، ولم يكن معروفاً لديهم ما نعرفه اليوم من إجراءات وقائية وعلاجية كالعزل والحجر الصحى وإغلاق الأماكن الموبوءة وما إلى ذلك من إجراءات يعرفها العصر الحديث : فلا غرو إن كانت أساليب الدولة لمعالجة الأمور أثناء هذه الكوارث تتفق وروح ذلك العصر بما فيها من قدرية وارتجالية ، ولم تكن هذه الأساليب تختلف كثيراً عن أساليب حكام أوروبا فى العصور الوسطى أثناء الأزمات المشابهة^(٢) وفى غالب الأحوال كان الناس يفسرون هذه الكوارث من وجهة نظر دينية

(١) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٧٣ ، ٢٧٥ (ط . بولاق) ،

Lane - Poole : A Hist . pp : 348 - 349.

(٢) المقرئى : لغاية الأمة : المقدمة (نشر زيادة والشيال) .

وأخلاقية بحتة فيرجعون أسبابها إلى غضب الله سبحانه وتعالى من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور ، وسيادة الظلم ، ويلجأ الناس إلى الدين يعتصمون برذائه ، ويكثر تعبدهم وتواجدهم بالمساجد ، وتقوم الحملات من قبل الدولة لمهاجمة أوكار الفساد وأماكن النزهة ، ومستودعات الخمور ومخازن الحشيش . وبمجرد انقضاء الأزمة تعود الأمور إلى سيرتها الأولى . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت وسائل علاج الأزمة تتخذ شكل الصدقات والإحسان تقرباً إلى الله فيوزع الطعام والخبز على الجائعين والفقراء حتى تنقضي الأزمة . ولا يكون ذلك عن التزام من جانب الدولة بتوفير الرعاية للناس . وفي أحيان أخرى تلجأ الدولة إلى إجراءات اقتصادية معينة كالتسعير وإلزام الطحانين والخبازين بفتح حوانيتهم والبيع في بعض الأحيان ، وتقييد بيع الغلال بحد أقصى منعاً للتخزين في أحيان أخرى أو استيراد القمح من الخارج في بعض الأوقات . . . وغير ذلك من الوسائل التي سنعرض لها تفصيلاً ما أمكن ذلك .

كان التصرف الشهير والوسيلة التي يلجأ إليها الناس حين تتوقف زيادة النيل في ذلك العصر هي الاستسقاء وفي مثل هذه الأحوال يخرج المحتسب ومعاونوه بناء على أمر السلطان لإعلام الناس بأنه تقرر إقامة صلاة الاستسقاء ويخبرهم بمكانها وميعادها ، وقد يدعوهم إلى الصيام عدة أيام تقرباً إلى الله حتى يأذن بزيادة النيل ويخرج الناس في مواكب حاشدة ومعهم القضاة والأمراء والعلماء والفقهاء ومشايخ الخوانق والصوفية وعامة الناس ، ويشترك النصارى واليهود في هذه المواكب فيخرجون إلى الصحراء ومعهم كتبهم المقدسة ، وربما خرج السلطان بنفسه معهم^(١) . . . وفي الصحراء تبدأ الصلاة وترتفع الأصوات بالدعاء والاستغاثة والتضرع إلى الله تعالى ، ويستمر ذلك المشهد عدة ساعات^(٢) وقد يخرج الناس لصلاة الاستسقاء عدة مرات أملاً في زيادة مياه الفيضان كما حدث عام ٨٥٤هـ^(٣) ، وقد اشترك المقرئ في إحدى هذه المناسبات ، ووصف لنا الموكب الذي خرج لصلاة الاستسقاء

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٣٩٤ - ٣٩٥ (ط . كاليفورنيا) .

(٢) المقرئ : السلوك ج ٣ / ق ١ ص ٢١٨ / ٢١٩ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٠٧ / ٢٠٨ (كاليفورنيا) .

سنة ٧٥٥ هـ فقال « . . . » خرج الناس بعد ذلك إلى قبة النصر : مشاة بثياب مهنتهم ومعهم أطفالهم ، وكنت ممن خرج يؤمئذ ، وقد نصب هناك منبر ، ونزل الأمير اقتصر عبد الغنى النائب في عدة من الأمراء فخطب ابن العسقلاني خطيب جامع عمرو بن العاص خطبة الاستسقاء ، وصلى صلاة الاستسقاء وكشف رأسه عند الدعاء وحول رداءه ، فكشف الناس رؤوسهم ، وضجوا بالدعاء إلى الله تعالى ، وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة ، وهملت أعينهم بالبكاء ، فكان مشهداً عظيماً ، فلم يسقوا وعادوا خائبين . . . » (١)

ويتكرر هذا المشهد الذي يصفه المقرئى وغيره من مؤرخى ذلك العصر كثيراً في عصر سلاطين المماليك كتصرف عاجز حيال الكوارث والنوازل الطبيعية ، وقد أورد لنا أبو المحاسن بن تغرى بردى وصفاً لموكب آخر من هذه الموكب اشترك فيه السلطان المؤيد شيخ (٢) وكان يرتدى ملابس بسيطة خالية من الزخارف كما أن فرسه لم يكن عليه غير قماش بسيط دون زخرفة بالذهب والفضة كما هي العادة ، وفي مثل هذه الأحوال كان السلطان يظهر الخشوع والانكسار والتواضع ، ويكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة ، وقد يبدأ الدعاء وصوته يختنق بالبكاء أمام جماهير الناس الذين يرددون الدعاء وراءه وهم يبكون أيضاً .

وتبدأ خطبة الاستسقاء باستغفار الله عشر مرات ، ثم تلى ذلك خطبة العيد وفيها الحمدلات بكما لها ويقول الخطيب « . . . يا أيها الناس استغفروا ربكم إنه كان غفراً يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ، مالكم لا ترجون الله وقاراً . . . » ، ويستمر الخطيب في نهى الناس عن المنكر والفساد ويدعوهم إلى فعل الخير تقرباً وزلفى لله تعالى ، ويحضهم على تقوى الله ثم يحول وجهه إلى القبلة ويتلو بعض الأدعية التي يرددونها الناس وراءه ، ومن هذه الأدعية « . . . اللهم خارج الهم ، وكاشف الغم ، مجيب دعوة المضطرين . . . اللهم انزل لنا من بركات السماء ، وانبت لنا من بركات الأرض ، اللهم انبت لنا الزرع ، اللهم بالعباد والبلاد من الاحتياج ما لا يعلمه إلا أنت ، اللهم ارحم ضعفنا

(١) المقرئى السلوك ج ٣/ق ١ ص ٢١٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٩٤/٣٩٥ (كاليغورنيا) .

وقلة حيلتنا ، اللهم إنا ظلمنا أنفسنا ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فأغفر لنا مغفرة من عندك ، وأرحمنا أنك أنت الغفور الرحيم ، أستغفر الله العظيم لا إله إلا هو وأتوب إليه . . . » (١) .

ولم يكن الناس في كل الأحيان يخرجون إلى الصحراء لصلاة الاستسقاء حين تتوقف زيادة النيل بل أنهم كثيراً ما اجتمعوا بأحد المساجد الكبيرة كجامع عمرو بن العاص ، أو الجامع الأزهر يتوسلون إلى الله ويبتهلون ويستمرون في قراءة القرآن وتلاوة الأدعية ربما لعدة أيام أملاً في أن يرفع عنهم الغمة (٢) .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذه التجمعات لم تكن تحدث فقط إذا هبط النيل أو قصر الفيضان ، بل كانت تحدث أيضاً إذا زاد النيل زيادة مفرطة وهدد بغرق البلاد وبوار الأرض الزراعية حتى يفوت أوان الزراعة وما يتبع ذلك من حوادث الغلاء والمجاعة كذلك كانت المياه تقطع الجسور وتغرق الدور والبساتين على جانبي النيل ومن ثم يجتمع الناس في المساجد لقراءة البخاري ، وتلاوة الدعوات والابتهاال إلى الله كي يهبط النهر ويزول الخطر ؛ ونسوق مثالا لذلك ما حدث سنة ٧٧٣هـ إذ اجتمع الناس - عقب زيادة مفرطة في مياه الفيضان - بالجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص للصلاة والدعاء إلى الله حتى يهبط النيل (٣) .

وكثيراً ما كان توقف النيل عن الزيادة وما ينتج عن ذلك من أزمات يفسر في ضوء فساد أخلاقيات الناس وانشغالهم بأمور اللهو والفساد (٤) فيقوم ممثلو الحكومة كنائب السلطان أو الوالي أو المحتسب أو غيرهم بحملات تأديبية يهاجمون فيها أوكار الفساد وأماكن اللهو ، ومستودعات الخمر والحشيش ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتواترة في المراجع منها ما حدث سنة ٨٤١هـ حين ظهر الطاعون بالبلاد المصرية ، وتخوف السلطان برسباي من الطاعون فعقد مجلساً حضره بعض الفقهاء وسألهم إن كان الله

(١) السيوطي : كوكب الروضة ص ١٤٧/١٤٩ (مخطوط) .

(٢) ابن حجر أنباء الغمر ج ١ ص ٣٦ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٠٤ ، السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١١١٣/١١١٤ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ١٩٥ ، ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ٥ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ص ٦ ص ٧٥٨/٧٦٠ (كاليفورنيا) ، ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ورقة ٣٥٠ (مخطوط) ، ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٧٣/٢٧٤ .

يعاقب الناس بالطاعون بسبب ما يقترفوه من الذنوب فأجابه البعض بأن الزنا إذا تفشى بين الناس ظهر فيهم الطاعون ، وأن النساء يتزيّن ويمشين في الطرقات ليلاً ونهاراً ، وأشار آخر بأن الواجب يقتضى منع النساء من المشى في الأسواق ، فنازعه ثالث في ذلك وطالب بمنع المتبرجات فقط « ... وأما العجائز ومن ليس لها من يقوم بأمرها لا تمنع من تعاطي حاجتها وتباحثوا في ذلك بحثاً كبيراً ، إلى أن مال السلطان إلى منعهن من الخروج مطلقاً ظناً من السلطان أن بمنعهم يرتفع الطاعون . . »^(١) .

ولعل هذه المناقشة دليل جيد على المفاهيم التي كانت سائدة في ذلك العصر ، والتي في ضوءها كانت تعالج الأمور أثناء هذه الأزمات ، وكانت مثل هذه الندوات تعقد دائماً للتشاور فيما يجب اتخاذه إزاء الكارثة ، بل إن المناقشات كانت تدور أحياناً حول جواز التضرع والدعاء والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى كي يرفع المجاعة أو الوباء عن الناس والبلاد^(٢) . وكانت مثل هذه التصرفات العاجزة سمة بارزة ومشاركة في مواقف الدولة ورجالها الذين يتمسحون برداء الدين إبان الأزمات ، وينتج عن هذه الندوات أو الاجتماعات أن تقوم حملات التأديب بمهاجمة أماكن اللهو والفساد ، ومعاينة من يؤمها بأشنع أنواع العقاب ، من ذلك ما حدث سنة ٧٨٩هـ - على سبيل المثال - حين لم تبلغ مياه الفيضان حد الوفاء ، وأعقب ذلك الاضطراب الاقتصادي والغلاء المألوف في مثل هذه الأحوال فبادر الأمير « سيف الدين سودون » نائب السلطنة بالديار المصرية وكبس المتفرجين بالبحر ، وقبض على جماعة منهم ووبخهم ، ثم قام بهجمة أخرى هاجم فيها أماكن بيع الخمر واستولى على حوالي ألف جرة خمر كسرها تحت أسوار القلعة ، وبعد ذلك بعدة أيام هاجم أحد أماكن تخزين الحشيش وبيعه واستولى على كميات ضخمة ضبطها هناك وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة أيضاً^(٣) كذلك حدث سنة ٩١٠هـ أن أصدر السلطان أوامره لحاجب الحجاب ووالى القاهرة أن يهاجموا بيوت الأقباط ويكسروا ما لديهم من جرار الخمر ، ويحرقوا أماكن الحشيش والبوزة « . . . ولا يبقوا في ذلك ممكناً . . »^(٤) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٦٠ (كاليفورنيا) .

(٢) ابن حجر : أنباء الفجر ج ٢ ص ٢٥٩ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٩ المجلد الثاني .

(٤) ابن آياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٧٦/٧٧ (نشر محمد مصطفى) .

ولكن الصفة التي تميزت بها هذه التصرفات أنها كانت مؤقتة إذ بمجرد انتهاء الأزمة ، وارتفاع الطاعون أو المجاعة ، وهبوط الأسعار يعود الناس إلى سيرتهم الأولى .

وكانت طبيعياً وفقاً لمفاهيم العصر السائدة أن تنتشر إشاعات عن رؤى وأحلام تنسب أسباب هذه الكوارث والأزمات إلى ما يقع من الفساد والظلم ، ففي أثناء أزمة سنة ٩١٦هـ أشيع أن امرأة صالحة رأت في منامها أن ملكين نزلا من السماء وتوجها إلى النيل الذي كان قد ارتفع إلى حوالى عشرين ذراعاً ، ورفسه أحدهما فهبط بسرعة ثم قال أحدهما للآخر إن الله تعالى كان أمر النيل أن يزيد إلى عشرين ذراعاً ، فلما تزايد الظلم بمصر أذن له بالهبوط وهو في ثمانية عشر ذراعاً ، فلما انتبهت من المنام هبط النيل في تلك الليلة « . . . دفعة واحدة ^(١) » .

وثمة تصرف آخر كانت الدولة تلجأ إليه أثناء هذه الأزمات ، وهو أن يجمع السلطان الفقراء والمحتاجين ويوزعهم على الأمراء وكبار رجال الدولة والأعيان والتجار والأثرياء لكل عدد يناسب قدره يلتزم بإطعامهم خلال الأزمة ^(٢) وقد حدث هذا مراراً طوال عصر سلاطين المماليك . وينبغي أن نلاحظ أن هذا التصرف كان بمثابة إحسان وصدقة للتخفيف من حدة الأزمة على عامة الناس ولم يكن موقفاً رسمياً التزمت به الدولة تجاه رعاياها . ففي سنة ٦٦٢هـ أمر السلطان الظاهر بيبرس بإحصاء الفقراء والمساكين في القاهرة ومصر وجمعهم تحت أسوار قلعة الجبل ، وألزم نفسه بإطعام عدد منهم ، كما ألزم ابنه « السعيد » بإطعام عدد آخر ثم فرق الباقيين على الأمراء لكل حسب عدد جنده ، كذلك فرض على كل فرد من التجار والبحرية والمقدمين والأكابر والشهود والمتعممين إطعام عدد معين من الجائعين بشرط أن يستمر الفقير في تناول راتبه اليومي مدة شهور ثلاثة ^(٣) ، وقد تكرر نفس الشيء أثناء المجاعة التي أملت بالبلاد في عهد السلطان العادل كتبغا (٦٩٤ - ٦٩٥هـ) فقدم أمر السلطان - بعد اشتداد المجاعة على الناس - بجمع الفقراء والمحتاجين وإلزام كل

(١) ابن أبي شامة : بدائع الزهور ج٤ ص ١٩٣ ، ١٩٤ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٠٦ (ط . بولاق) .

(٣) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٢هـ ، النويرى نهاية الأرب ج٢٨ ورقة ٢٧ (مخطوط) ،

المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .

من الأمراء والأعيان والتجار بإطعام عدد من معين منهم، فكان من الأمراء من يطعم سهمه من الفقراء لحم البقر مفروداً في مرقة الخبز يمدده لهم سماطاً يأكلون منه جميعاً وكان بعضهم يفرق الكعك على الفقراء الملزم بإطعامهم بينما كان البعض يعطيهم رقائقاً « . . . فحرف ما كان بالناس من الفقر . . . »^(١) وفي سنة ٧٧٦هـ انتدب الأمير منجك نائب السلطان لتفرقة الفقراء على الأمراء وغيرهم ، وفرقهم أيضاً على الدواوين والتجار وأرباب الأموال ، ونودي في القاهرة بعدم التصديق على الحرافيش « . . . وإى حرفوش شحذ يصلب . . . »^(٢) كذلك حدث أن أملت بالبلاد مجاعة سنة ٨٠٨هـ فنادى النائب في الفقراء فاجتمعوا بالميدان وفرقهم على الأغنياء من الأمراء والقضاة والأعيان كي يطعموهم « . . . فقل سؤلهم ونحف صياحهم وسكنوا . . . »^(٣).

وكان الخبز يوزع على الفقراء بالجوامع ، وعلى الصوفية في الزوايا والخوانق والأربطة، فقد كان السلطان الظاهر بيبرس يفرق مائة أردب مخبوزة على الفقراء يومياً في مجاعة سنة ٦٦٢هـ^(٤) ، وقد حدث سنة ٧٩٨هـ - أثناء المجاعة - أن كانت عشرون أردباً من الشون السلطانية توزع مخبوزة على الفقراء في الجوامع^(٥) ولكن الصوفية في الخوانق كانوا يتأثرون بالأزمات الناتجة عن المجاعات ، فقد تعطل طعام ومطبخ خانقاه بيبرس الجاشنكير بسبب هبوط النيل سنة ٧٧٦هـ واستمر الخبز يصرف للصوفية علاوة على سبعة دراهم شهرياً بدل الطعام زيدت إلى عشرة دراهم فيما بعد ، وحين وقعت مجاعة سنة ٧٩٦هـ أبطل صرف الخبز أيضاً وأغلق مخبز الخانقاه ، وصار الصوفية يأخذون مبلغاً من المال شهرياً بدل الخبز والطعام^(٦).

وبجانب هذه التصرفات - التي تغلب عليها الصفة الدينية - كانت الدولة

(١) المقریزی : إغاثة الأمة ص ٣٥ .

(٢) المقریزی : السلوك ج٣ / ق ص ٢٣٠ ، العيني : عقد الجمان ج٢٤ ورقة ١٨٣ (مخطوط) ،

ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ص ٢٢٩

(٣) ابن حجر : أنباء الغر ج١ ص ٦٣١/٦٢٣ (مخطوط) .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٢١٣/٢١٤ (ط) .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج١/٣٠٦ (ط . بولاق) .

(٦) المقریزی : الخطط ج٢ ص ٢١٦ .

تلقياً إلى وسائل أخرى كأن تخرج الغلال من الأهراء السلطانية ، وتوزع على الطحانين كي يطحنوها للخبازين ويأخذ كل مخبز مقداراً يناسب معدل استهلاكه تخفيفاً من وقع الأزمة على الناس ^(١) كذلك كان السلطان يأمر ببيع الغلال من الشئون السلطانية « للضعفاء والأرامل » ويضع حداً أقصى للكمية المسموح بشرائها لكل فرد حتى لا يشتري من يخزن « . . . ويقع الحجر على من يخزن . . . » ^(٢) .
 ففي سنة ٧٣٦ هـ - على سبيل المثال - ألزم السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأمراء أن يفتحوا شئونهم ويبيعوا الغلال للناس بأسعار حددها لهم « . . . ففرج عن الناس . . . » ^(٣)

وفي بعض الأحيان كان السلطان يتصدى بنفسه لحل مشكلة اختفاء القمح ، ويتابع الأزمة حتى يحلها عن طريق استيراد القمح من سوريا مثلاً أو عن طريق إرسال رجاله لشراء القمح من الوجه القبلي ^(٤) . كذلك كان الخبازون والطحانون يتعرضون للعقوبات البدنية كالجلد والتسمير في بعض الأحيان ، فقد كان الوالى أو المحتسب أو النائب أو من في مكانتهم يتولى مراقبة الأسعار ، ومراقبة عمليات البيع والشراء ، وحين يمتنع الطحانون أو أصحاب حوانيت الخبز عن البيع يعاقبهم بأشنع أنواع العقاب في بعض الأحيان ، ويوجه إليهم إنذاراً بفتح حوانيتهم « . . . وأن يبيعوا بسعر الله . . . » ويحدد لهم مهلة يحل بعد انقضاء مدتها نهب محلاتهم ^(٥) وفي سنة ٧٩٨ هـ اشتدت وطأة المجاعة ، وقل الخبز حتى كاد أن يختفى تماماً ، فوقف الناس للسلطان الظاهر برقوق وشكوا إليه انعدام الأقوات ، فأمر بتسمير الطحانين ، وسماسة الغلال ، وقد عاقب المحتسب أربعة من كبارهم بالجلد علناً ^(٦) .

وكان تسعير الغلال إحدى الوسائل التي تلجأ إليها الحكومة إبان أوقات المجاعات ، ولكن النتيجة غالباً ما تكون عكس المرجو من هذا الإجراء إذ تتفاقم الأمور ، ويختفى

(١) المقرئى : إغائة الأمة ص ٣٣ .

(٢) العيى : عقد الجمان حواث سنة ٦٦٢ هـ ، ج ٢٥ ورقة ٤١٤ ، المقرئى : السلوك ج ١

ص ٥٠٧ .

(٣) المقرئى : إغائة الأمة ص ٤٠ .

(٤) العيى : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٤١٣/٤١٤ (مخطوط) .

(٥) تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٣٨٧ .

(٦) المرجع السابق ج ٩ ص ٤٣٤/٤٣٥ .

الخبز ، وتشدد بالناس المجاعة فتضطر الحكومة ثانية إلى إبطال التسعير^(١) .

وقد تدفع الأزمة — حين تشدد — ببعض الموظفين إلى الاستقالة لعجزهم عن تدبير الأمور بصفتهم مسئولين عن مراقبة الأسواق والتجارة الداخلية ، ففي حوادث سنة ٨١٨ هـ حين اشتدت المجاعة على الناس وقاسوا الكثير من اختفاء الغلال وسائر المواد الغذائية ، اضطر الوالى « التاج الشوبكى » — الذى كان يتولى الحسبة أيضاً آنذاك — إلى أن يستعفى من الحسبة ، وقام نائب الغيبة بتعيين القاضى « شمس الدين محمد ابن يوسف المحلاوى » بدلا منه ، ولكن الأخير لم يلبث أن استعفى هو الآخر بعد أيام قلائل بسبب تزايد الأسعار ، وقلة الخبز واشتداد الزحام على الأفران ، فأعيد التاج الشوبكى إلى الحسبة مرة أخرى^(٢) ، وفي بعض الأحيان كان السلطان أو نائبه يعزل بعض هؤلاء الموظفين إذا نسب إليه سوء التصرف أثناء المجاعة^(٣) . وكثيراً ما كان المحتسب يلزم بيته ولا يخرج إلى الأماكن العامة خشية غضب الناس الذين ينسبون إليه ما وصلت إليه الحال ، ففي أثناء غلاء سنة ٧٩٨ هـ لزم المحتسب بيته خوفاً على نفسه من العامة ثلاثة أيام^(٤) . كذلك لم يخرج المحتسب مع الناس لصلاة الاستسقاء سنة ٨١٨ هـ عملاً بنصيحة القاضى « جلال الدين » بالاختفاء خوفاً عليه من الناس . . . لأن الألسنة كانت قد انطلقت فى حقه أنه هو سبب الغلاء . . .^(٥) .

وكان الضيق الاقتصادى الذى تعانيه الدولة إبان هذه المجاعات يدفع بالسلطين والولاة والحكام إلى وسائل ظالمة للحصول على المال بقصد موازنة نفقات الدولة وإيراداتها وتعدد آنذاك المصادرات للولاة والمباشرين ، كما تفرض على التجار أتاوات كبيرة ومغارم فادحة ، وتفرض عليهم الحكومة شراء البضائع التى تطرحها عليهم بأعلى الأثمان^(٦) .

كذلك كانت الدولة تلجأ إلى وسائل أخرى للاستيلاء على أموال الناس وممتلكاتهم

-
- (١) العينى عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٢ هـ ، المقرئى : إغاثة الأمة ص ٣٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١٤ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ . ورقة ٢٧ ، السلوك ج ١ ص ٧٠٦ .
- (٢) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ورقة ٨٥ ، العينى : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٤١٣ — ٤١٤ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٤٣٥ .
- (٤) المرجع السابق : نفس الجزء والصفحة .
- (٥) العينى : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٤١٥ .
- (٦) المقرئى : إغاثة الأمة ص ٣٣ .

فقد تضع العقوبات الجسام في طريق الوريث الذي يطالب بحقه في ميراث تخلف بموت بعض أقاربه أو أحد والديه ، إذ يكلف بإثبات نسبه أو حقه في الميراث ، ولا يتم ذلك ، بطبيعة الحال ، إلا بعد عناء طويل ومشقة بالغة وإذا تم ذلك يحال إلى ديوان المواريث حيث يواجه مزيداً من العقوبات والتعقيدات ، وكانت الحكومة تلجأ إلى هذه الحيل « . . . حتى تعجز الورثة عن الطلب فتترك المطالبة . . . »^(١) ومن ثم تستولى الدولة على هذه الأموال أو الأملاك .

وفي أثناء انتشار المجاعات والطواعين كان بعض سلاطين المماليك يتظاهر بالعدل فيعلن إلغاء الكثير من الضرائب أو « المغارم والمظالم والكلف » — على حد تعبير ذلك العصر — خوفاً من شر الوباء المنتشر ، وبمجرد أن يرتفع الوباء ويقل الخوف منه تعود المكوس والضرائب الفادحة لتفرض على الناس « كما كانت وزيادة »^(٢) فقد حدث سنة ٩١٩ هـ أن اشتد الطاعون وتزايد انتشاره « وكان السلطان موهوماً على نفسه » وأشيع أنه رأى في منامه أن النجوم تساقطت من السماء إلى الأرض ، وتلاها القمر ، وقد فسر هذا الحلم بأن النجوم هي عسكر السلطان ، وأنه هو القمر . . . فعند ذلك أخذ في إظهار العدل ، وأبطل شيء من المظالم . . . » وأبطل المكوس التي كانت تفرض على البائعين في الأسواق ، وعلى التجار ، كما ألغى الضريبة التي كانت تؤخذ عند شراء كل أردب من الغلال^(٣) كذلك كانت تصرفات بعض سلاطين المماليك تتسم باللين أثناء هذه الأزمات فقد حدث أثناء مجاعة سنة ٧٨٤ هـ أن أمر السلطان برقوق الحكام بأن لا يحبس أحد بسبب ديونه ، وأطلق سراح المسجونين^(٤) كذلك حدث عام سنة ٩١٩ هـ أن أمر السلطان الغوري أرباب الوظائف من الأمراء بمنع الفقهاء من الجلوس على أبوابهم وأمر أيضاً بأن لا يشتكى أحد خصمه « إلا من الشرع الشريف »^(٥) .

وغالباً ما كان سلاطين المماليك وأمراؤهم والأعيان والأثرياء يهربون إذا حل الوباء

(١) المرجع السابق : ص ٣٧/٣٨ .

(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٤) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ١٨١ (مخطوط) .

(٥) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٧٦/٧٧ (نشر محمد مصطفى) .

إلى خارج القاهرة وكانت « سرياقوس » هى المكان الذى يفر إليه السلاطين غالباً^(١) كما كان الأعيان من القضاة والتجار والمتعممين يرسلون أولادهم إلى أماكن خارج العاصمة حين تنزل بالبلاد كارثة من هذا النوع ، مثال ذلك ما حدث سنة ٩١٩ هـ إذ هرب القاضى الحنفى « عبد البر » أولاده إلى ناحية جبل الطور ، وحذا حذوه جماعة من أمراء المماليك وبعض الأعيان فأرسلوا أولادهم أيضاً إلى الطور «... خوفاً عليهم من الطعن^(٢)» .

وهكذا كان « العامة » وهم السواد الأعظم من جمهرة المصريين فى ذلك العصر هم الغذاء السهل لهذه الكوارث إذ يقتلهم الجوع فيتساقطون فى الطرقات ، وحين تجيف الطرق من جشهم ينتشر الطاعون أو غيره من الأمراض الوبائية ليشمل الكل ، فيهرب من يستطيع الهرب من الأثرياء بينما ينشب الوباء مخالبه فيمن بقى من الناس سواء الفقراء أم الأغنياء^(٣) .

خلاصة القول أن موقف الدولة أثناء هذه الكوارث والأزمات لم يكن يختلف كثيراً عن تصرفات حكومات أوروبا العصور الوسطى إبان مثل هذه الأزمات ، وهو موقف يتسم بالعجز الواضح حيال نوازل الطبيعة وكوارثها إذ لم يكن فى مقدور إنسان تلك العصور أن يدفع شرها عن نفسه بالوسائل التى يعرفها عالمنا المعاصر كالحجر الصحى وإلى ذلك من إجراءات وقائية وعلاجية ، كذلك لم توجد سياسة اقتصادية قائمة على أساس من التخطيط تضمن عدم حدوث المجاعة ، وعلى كل حال فإن هذه الكوارث - سواء اتخذت شكل المجاعة أم شكل الوباء أو كليهما معاً - كانت تدفع بالبلاد إلى حال من الفوضى الشاملة والاضطراب الذى يعم كل مظاهر الحياة المصرية ويعم القلق والحزن والبكاء ، وتثور الفتن بسبب نزاعات أمراء المماليك أو ثورات العربان ، وتظل الحال فى اضطراب حتى يبلغ النهر علامة الوفاء ويزرع الناس وتأتى السنة الجديدة لتمنح الهدوء والاستقرار النسبى للبلاد .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٤ ، العيني عقد الجمان ج ٢٤ ص ١١٨ ، المقرئى

السلوك ج ٢ / ق ٣ ص ٧٧٠ .

(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٩٦ / ٢٩٩ .

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ ص ٣٨٣ .

الباب الثالث

أهمية نهر النيل كطريق للمواصلات والتجارة والحملات العسكرية

نهر النيل والتجارة الداخلية - أهم موانئ النهر -
الاستعراضات فوق صفحة النهر - أهمية نهر النيل
عسكرياً (نقل الحملات ضد الصليبيين والقراصنة
والعربان والنوبة) .

من الطبيعي في ذلك العصر الذي لم يعرف وسائل المواصلات الحديثة كالسيارة أو القطار أو الطائرة أن يكون نهر النيل هو الطريق الرئيسي للانتقال بين أنحاء البلاد لا سيما بين الشمال والجنوب . والواقع أن نهر النيل في العصور الوسطى كان وسيلة مواصلات طبيعية لا نظير لها ، وقد زاد من أهمية النقل النهري باعتباره وسيلة المواصلات الرئيسية والأكثر أهمية أن وادى النيل في شطره المصرى عبارة عن شريط ضيق من الأرض الزراعية - باستثناء منطقة الدلتا - ومن ثم فإن التنقل بين شرق الوادى وغربه لم يكن مشكلة بسبب ضيق الرقعة المأهولة لاسيما فى الصعيد ، بينما قام النهر بدور الرابط الأساسى الوحيد تقريباً بين الشمال والجنوب . وفى منطقة الدلتا لعبت فروع النهر والترع والقنوات الخارجة منه دوراً هاماً فى الربط بين أنحاء البلاد ، ونقل المسافرين والبضائع من مكان لآخر ، وعلى صفحة النهر الخالد كانت تسير السفن النيلية والمراكب تحمل الغلال والماشية وشتى أنواع البضائع مصعدة جنوباً أو منحدرة شمالاً . كذلك شهدت مياه نهر النيل خروج السفن الحربية تحمل المقاتلين بأسلحتهم وعتادهم لمحاربة الصليبيين ، وتأمين شواطئ البلاد ومواجهة اعتداءات قراصنة البحر المتوسط من جهة ، ولتوطيد أركان الحكم وإقرار الأمن الداخلى وإخضاع العربان وأهل النوبة من جهة أخرى .

ويبدو أن حركة الملاحة في نهر النيل — على عصر سلاطين المماليك — كانت كثيفة بدرجة كبيرة نظراً للنشاط التجارى الضخم الذى قامت به مصر فى تلك الفترة من تاريخها ، لدرجة أن بعض المعاصرين كتب يقول « . . . ليس فى الدنيا نهر تجرى فيه السفن أكثر من نيل مصر . . . »^(١) وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على حجم حركة السفن النيلية التى تعكس بدورها أهمية ذلك المجرى المائى العظيم كطريق للمواصلات والتجارة ، ويؤيد ذلك ما ذكره الرحالة الشهير ابن بطوطة من أن « . . . بنهر النيل ستة وثلاثين ألف مركباً للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات . . . »^(٢) ، وكانت السفن تبدو كالجبال وهى راسية بشاطئ النيل نظراً لضخامتها ، وكانت حمولة بعض هذه السفن تصل إلى ما يحمله خمسمائة بعير وأكثر^(٣) ، وتنوعت أشكال وأحجام هذه السفن والمراكب ، وكانت سفن البضائع كبيرة الحجم تحوى كل منها شونة لحمل الغلال المتنوعة والأحطاب والتبن . وثمة نوع من السفن كان يستخدم فى نقل الثلج المستورد من الشام ، وكانت هذه المراكب تأتى إلى دمياط ثم تنزل فى فرع النيل حتى تصل ساحل النيل فى بولاق حيث تنقل على البغال السلطانية ، ويحمل إلى الشرايخانة الشريفة^(٤) وقد استرعى نظر الشاعر البهاء زهير منظر المراكب والسفن النيلية فقال :

يارعى الله أرض مصر وحيا ما مضى لى بمصر من الأوقات
حبذا النيل والمراكب فيه مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدنى من الحديث عن النيل ودعنى من دجلة والفرات^(٥) .

ومن المعلوم أن مجرى نهر النيل لا يصلح كله للملاحة إذ أن حجارة الجنادل كانت وما تزال تعوق الملاحة . وفى بعض الأماكن كان يمكن للسفن المرور فى أوقات

(١) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٣٦ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٦٩ .

(٣) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٢٥ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٣٦ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩٦ .

(٥) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩ (ط . بولاق) .

زيادة النيل فقط^(١) وعند المنطقة التي يستحيل سير المراكب فيها كانت البضائع تفرغ من السفن والمراكب لتحمل على ظهور الدواب فكانت البضائع الآتية من السودان تفرغ لتنتقل إلى مراكب مصر ويحدث العكس بالنسبة للبضائع الآتية من مصر^(٢).

وعلى جانبي الدلتا فوق مياه فرعى النيل كانت السفن تجرى بالآلاف طوال العام محملة بالبضائع والمواد الغذائية المصدرة إلى القاهرة سوق الاستهلاك الرئيسي^(٣) وفي الصعيد اشتهرت منفوط بجودة قمحها ومن ثم كان التجار يصعدون في المراكب إليها لاستجلابها^(٤) ويبدو أن الصعيد كان هو مورد القمح الرئيسي في البلاد إذ كثير ما نسمع - ولا سيما في أوقات الغلاء والمجاعة - أن السلطان قد أرسل بعض الأمراء أو سماسرة الغلال لشراء القمح من الوجه القبلي ، أو أن تجار القمح قدموا من الجنوب لبيعه في القاهرة أو الإسكندرية^(٥) وفي الصعيد كان الكتان يزرع بكميات هائلة - إذ كان يستخدم في صنع ملابس غالبية السكان - ومن الصعيد كان الكتان يخرج في شكل « بالات » ضخمة بطريق النهر منحدراً إلى القاهرة ، ويواصل رحلته في المراكب إلى الإسكندرية حيث يصدر إلى بلاد المغرب الإسلامي وبلاد الشام^(٦) ، كذلك اشتهرت دمياط بالموز الذي كان يحمل منها إلى القاهرة في المراكب^(٧) ، وقد ذكر بيلوتي الكريتي أن المراكب المحملة بالبضائع والآتية من الإسكندرية عن طريق فرع رشيد ودمياط كانت تجتمع عند بلدة شطانوف التي كانت تبعد عن القاهرة سبعة أميال ، كما أن السفن المحملة بالبضائع كان تسير في حركة دائبة طوال العام تحمل البضائع الذاهبة إلى القاهرة وسائر أنحاء البلاد^(٨) وكانت ضفتا النهر عامرتين بالمدن

(١) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٥٢/٥٣ ، النويري : نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٢ ، ابن أياس : نقش الأزهار ص ٢٧ (مخطوط) .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٣ / ٥٤ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ص ٦٩ . Dopp : L'Egypte au Com, p. 23.

(٤) رحلة ابن جبير : ص ٣١ .

(٥) العيني : عقد الجمان ج ٢ ورقة ٤١٤ (مخطوط) .

Dopp : op. Cit., p. 35.

(٦)

(٧) رحلة ابن بطوطة ص ٥٩ - ٦٠ .

Dopp : op. Cit., p. 23.

(٨)

والقرى والأسواق نتيجة لحركة الملاحة النيلية الدائبة فقد ذكر ابن بطوطة أنه ركب النيل « ما بين مداين وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض . . . » ولم يكن المسافر في النهر يحتاج إلى أن يأخذ معه طعاماً ما أو غيره، « . . . » لأنه مهما أراد النزول للشاطئ سيجد سوقاً يشتري منه ما يريد كما يجد مكاناً يتوضأ ويؤدي الصلاة، والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد^(١) . . . » .

كذلك كانت الأغنام والماشية ترد من الصعيد لتباع في القاهرة، ففي سنة ٨٢٦ هـ حضر الاستادار من الصعيد ومعه الكثير من الأبقار والأغنام والماشية، فجمع الجزارين وغيرهم لشرائها، فاجتمع لذلك عدد كبير من الناس في مركب ولكنها انقلبت بهم فغرقوا ولم يسلم منهم إلا القليل^(٢) .

ولم يكن مجرى النهر الرئيسي هو وحده طريق المواصلات والتجارة بين أنحاء البلاد في - عصر سلاطين المماليك - بل كانت الترع والقنوات الخارجة من نهر النيل تقوم بنفس الدور أيضاً، فقد كان من بين منافع خليج الإسكندرية الذي بدأ العمل فيه سنة ٧١٠ هـ - كما عددها المؤرخون المعاصرون - أن استخدمته المراكب لحمل الغلال وأصناف المتاجر إلى الإسكندرية، وأدى هذا الخليج دوره في الملاحة النهرية آنذاك مما يعنى « . . . توفير للكلف وزيادة في المال . . . »^(٣) كذلك فإن الخليج الناصري حين أنشئ سنة ٧٢٥ هـ جرت فيه السفن تحمل الغلال وغيرها^(٤) كذلك كانت المراكب تسير في فرع النيل الموصل إلى الفيوم « بحر يوسف » والذي عرف في ذلك الوقت باسم « خليج المنهى » وكانت تدخل إلى إقليم الفيوم عن طريق الفتحة المسماة آنذاك « باللاهون » في أيام الفيضان^(٥) كما كانت السفن المحملة بأنواع المتاجر تسير في الخليج الكبير الذي منعت مراكب التزهة من دخوله أيام المقریزی (ق ٥٩) ^(٦) .

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ورقة ١٩٩ (مخطوط) .

(٣) المقریزی : الخطط ج ١ ص ١٧٠ .

(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٤ - ١٥٠ .

(٥) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٧٩ .

(٦) المقریزی : الخطط ، ج ٢ ص ١٤٢ .

وثمة مثال آخر هو ما حدث سنة ٧٨١هـ حين أصدر الأميران « يبيرس » و « سلار » أمراً لمتولى الصناعة بمصر أن يمنع مراكب التزهة من الدخول إلى الخليج الناصري، وركبت سلسلة على مدخله ، فلم تعد تدخله سوى المراكب التي يكون فيها غلة أو متاع ، ولكن ذلك الحظر ما لبث أن ارتفع بعد نهاية حكم الظاهر برقوق^(١) . وكانت صفحة النيل متنزها للمصريين ولكننا كثيراً ما نقرأ في المصادر المعاصرة عن أوامر من بعض السلاطين بمنع الناس من ركوب النيل بسبب مظاهر الانحلال والفوضى التي تبدو واضحة في هذه التجمعات .

ولم تكن البضائع التجارية فقط هي التي تنقل فوق مياه النهر ، فقد استخدمت المراكب في بعض الأحيان لنقل الرخام وبقايا المعابد الفرعونية لبناء المساجد أو غيرها في القاهرة كما حدث حين أراد السلطان الناصر محمد استكمال بناء جامعہ بالقلعة فقد أحضرت له « أعمدة عظيمة » من الأشمونين أغلب الظن أنها من بقايا أحد المعابد الفرعونية ، وندب لذلك المهندسين والجمارين والعتالين وندب لهم المراكب الكبار الحشنة ، وحملوا مع بداية الفيضان إلى ساحل مصر^(٢) كذلك أرسل نائب السلطنة بثغر الإسكندرية سنة ٧٨٩هـ هدية كان من بينها سبعة ألواح رخام وصلت إلى ساحل بولاق حيث تم تحويلها إلى القلعة في ثلاثة أيام^(٣) .

لكن الملاحة في نهر النيل كانت تتعرض لبعض الأخطار منها ما هو بفعل الطبيعة ومنها ما هو بفعل البشر ، ولما كانت سفن تلك العصور تعتمد في سيرها على الرياح بصفة أساسية فإن اشتداد الريح في بعض الأحيان كان يعرض السفن النيلية لخطر الغرق ومن ثم تتعطل حركة الملاحة مما كان يؤثر بدوره في حركة التجارة الداخلية ، فقد تسببت الرياح سنة ٨٣١هـ - على سبيل المثال - في منع المراكب التي تحمل الغلال من الوصول إلى الوجه البحري مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وقلة الخبز في الأسواق لعدة أيام^(٤) كذلك تسببت شدة الرياح في إحدى السنوات في غرق مائتي سفينة « وهلك

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٤ - ١٥٠ : ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ١٢٦/١٢٧

(مخطوط) .

(٢) ابن أبيك الدوادار : الدر الفاخر ص ٣٨٢/٣٨٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات : ج ٩ ص ٢٠/٢١ .

(٤) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ورقة ١٤٠ (مخطوط) .

فيها خلق كثير . . .»^(١) كما أن انخفاض مياه النهر عن منسوبها العادى — ولا سيما في أيام الفيضان — كان يؤثر في حركة الملاحة بالنيل ومن ثم يقل وزود المراكب التي تحمل الغلال من أنحاء البلاد إلى السوق في القاهرة ، فينتج عن ذلك ارتفاع أسعار المواد الغذائية وحدوث الغلاء الذي قد تصحبه المجاعة^(٢)

وبجانب هذه العوامل الطبيعية التي كانت تعوق الملاحة في نهر النيل وجدت عوامل أخرى ناتجة عن اهتزاز أركان الأمن في البلاد ، فلم يكن النهر طريقاً مأموناً للتجارة والسفن التي تحمل البضائع في كل الأحوال ، إذ أن قراصنة النهر كثيراً ما كانوا يهاجمون المراكب والسفن النيلية التي تحمل الغلال وغيرها من البضائع ويستولون على ما بها ، وطبيعى في ظل ظروف كهذه أن يتخوف التجار من جلب تجارتهم إلى القاهرة ، من ذلك ما حدث سنة ٨٢٢ هـ فقد ارتفعت الأسعار وحل بالناس الغلاء بسبب « . . . كثرة الحرامية في النيل فقل الجلب من الوجه القبلى . . . »^(٣) — كذلك حدث سنة ٨٢٥ هـ أن قبض على شخص يسمى « ابن وثاب » وكان من قطاع الطرق بالأطفيحية من بلاد الصعيد ، جمع حوله كثيراً من اللصوص والأشقياء وسماهم بأسماء الأمراء فإذا مرت مركب فيها غلة سأل عن صاحبها ، فإذا قيل له الأمير فلان استدعى ذلك الشخص المسمى باسمه فقال له هذه مركبك خذها « . . . واستطالوا على الناس جداً . . . »^(٤) وبطبيعة الحال كان النشاط التجارى الداخلى يتأثر بمثل هذه القرصنة التي كانت تتكرر كثيراً لا سيما في أوقات ضعف الحكومة التي يرأسها سلطان ضعيف أو أثناء احتدام النزاع بين أمراء المماليك على السلطة .

وثمة ضريبة كانت تفرض على المراكب والسفن كانت تسمى « حماية المراكب » تجبى من سائر المراكب التي في النيل بتقرير معين على كل مركب يقال له « مقرر الحماية » ويجبى من المسافرين في المراكب سواء كانوا فقراء أم أغنياء ، وقد أبطلها السلطان الناصر محمد بن قلاوون فيما أبطله من مكوس^(٥) ويبدو أنها أعيدت مرة

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٤٢٨ .

(٣) ابن حجر : أبناء الغمر ج ٢ ورقة ١٤٦ .

(٤) المرجع السابق نفس الجزء ص ١٦٦ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٢ / ق ١ ص ١٥٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٤٧ .

(ط . دار الكتب) .

أخرى فيما بعد ، إذ يذكر ابن أياس أن السلطان الأشرف قايتباي قد فرض عدة ضرائب على كافة الممتلكات ، ومن بينها المراكب ، وذلك حين احتاج إلى المال سنة ٨٩٦ هـ لإعداد إحدى الحملات^(١) .

وكانت هناك رقابة من نوع ما على السفن والمراكب التي تسافر فوق صفحة نهر النيل إذ كانت تفرض بعض القيود على أصحاب السفن والمراكب بقصد تأمين سلامة الركاب والسفن ، من ذلك أن أصحاب السفن والمراكب كان عليهم أن يلتزموا بعدم تحميلها فوق العادة « خوف الغرق » ، كذلك لم تكن يسمح للسفن بالسفر أثناء هبوب الرياح ، وفي حالة تواجد ركاب من الجنسين فوق ظهر السفينة أو المركب ، كان يفرض على صاحب المركب أن يفصل بين النساء والرجال بحاجز^(٢) .

موانئ النهر :

أما عن أهم موانئ نهر النيل — لا سيما ما يرتبط بالتجارة الخارجية — فقد كانت دمياط ، والقاهرة (بولاق — والفسطاط) في الشمال ، وقوص وأسوان في الجنوب . وبينما كانت أسوان وقوص مينائين لتجارة النوبة والسودان واليمن والهند والصين ، كانت الإسكندرية ، ودمياط بابي تجارة أوروبا في الشمال^(٣) .

وفي الجنوب كان الطريق البري بين ميناء عيذاب (مركز تجمع الحجاج وسوق التجارة مع الهند وعدن) والنيل تنتهي إلى ثلاث موانئ على نهر النيل هي أسوان وأدفو وقوص^(٤) وقد احتفظت أسوان بمكانة هامة بصفتها ميناء هام على نهر النيل في كل العصور إذ كانت المركز الطبيعي لتجارة النوبة وأواسط أفريقيا وتجارة الهند لفترة طويلة ، وكان الذهب وريش النعام من أهم الواردات التي ترد عن طريق هذه المدينة وفي نهاية العصر الفاطمي تدهورت مكانتها حين أصبح التجار والحجاج

(١) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٦٨ (ط . بولاق) .

(٢) ابن الأخوة : معالم القرية ص ٢٢٢ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٢٩٠ . (ط . ١٩٦٥) .

(٤) سيدة إسماعيل : كاشف : مصر في عهد الإنشيديين ص ٢٨١ .

يفضلون قوص عنها^(١)؛ ففي القرن الثامن الهجري أصبحت قوص أكبر مدن الصعيد ونتج هذا التطور عن التغير الذي حدث في طريق التجارة العظمى بين الشرق والغرب بسبب الحروب الصليبية ، ونستطيع أن نتعرف على مدى رخائها في العصور الوسطى إذا عرفنا أنها كانت مستودعاً للبضائع التجارية الواردة من وسط أفريقيا واليمن ، كما كانت مقصد الحجاج القادمين من مصر والمغرب ، وقد زارها الرحالة ابن جبير في العصر الأيوبي ووصف ثراءها وازدهارها^(٢) وبطبيعة الحال فإن الأمر في أيام ابن جبير لم يختلف كثيراً عنه في أيام المماليك بل أنه في بداية عصر سلاطين المماليك تطورت قوص لتصبح مدينتها « القوصية » على درجة كبيرة من الأهمية الإدارية والاقتصادية ، وأصبحت أسوان تابعة لها إدارياً واقتصادياً^(٣) .

وفي الشمال كانت ميناء دمياط همزة الوصل بين نهر النيل والبحر المتوسط وقد وصفها الرحالة ابن بطوطة بقوله « . . . ومدينة دمياط على شاطئ النيل وأهل الدور الموالية يستقون منه الماء بالدلاء ، وكثير من دورها به دركات ينزل فيها إلى النيل . . . »^(٤) وكانت دمياط على مسافة حوالي فرسخ ونصف من البحر المتوسط^(٥) كما كانت هذه المدينة ميناء هاماً ومركزاً صناعياً كبيراً في العصور الوسطى ، ولكنها تعرضت للغزو عدة مرات بسبب موقعها وفي سنة ٥٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) هدمت تماماً وسويت بالأرض ثم أعيد بناؤها إلى الجنوب من المدينة القديمة لتأمينها من هجوم الأساطيل المعادية^(٦) وقد عمده السلطان الظاهر بيبرس إلى تضيق مدخل فرع دمياط من ناحية البحر المتوسط وردمه^(٧) حتى لا تدخله السفن الكبار التي تحمل الجنود ولم تعد تدخله سوى مراكب التجارة الصغيرة .

ويبدو أن كل المدن والقرى المصرية التي كانت على شاطئ النيل في عصر

Ency. of Islam : Art Assuan.

(١)

(٢) رحلة ابن جبير : ص ٤٠ - ٤٢ (نشر د . حسين نصار) .

Ency. of Islam : Art Kus.

(٣)

(٤) رحلة ابن بطوطة : ص ٥٩ - ٦٠ .

(٥) رحلة تافور ص ٦٣ (ترجمة د . حسن حبشي) .

Ency, of Islam : Art Damiatna

(٦)

(٧) المعنى : عقد الجمان حوادث سنة ٥٦٦٢ هـ (مخطوط) .

سلاطين المماليك كان لها موانى - ولو من نوع بدائي بسيط - ترسو عندها السفن النيلية ، وإن كان بعضها من النوع الخشبي البسيط الذى يمكن رفعه عند الحاجة إلى ذلك ، فقد ذكر ابن بطوطة أنه سافر إلى بلدة أشمون الرمان على أحد فروع النيل وكانت لها قنطرة خشبية ترسو المراكب عندها ، فإذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة ، كما أنه وصف مدينة سمندود - التى تقع على مجرى النهر الرئيسى - بأنها كثيرة المراكب^(١) مما يدل على أنه كان لها ميناء أو على الأقل مرسى للسفن .

أما القاهرة فكان لها ميناء على ساحل الفسطاط ، وميناء على ساحل بولاق . وفى معرض حديثه عن تجارة التوابل ذكر الرحالة بيلوتى الكريتي - الذى زار مصر فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى - أن المراكب التى تحمل التوابل كانت تفرغ حمولاتها فى ميناء الطور حيث تحملها الجمال إلى ضفة النهر وهناك يجدون عدداً كبيراً من السفن تنتظراً للتوابل ، وتحملها لتسير فى النهر إلى القاهرة مروراً ببابليون (الفسطاط) وهناك يوجد الجمرك (وهو الجمرك المصرى الثالث على التجارة الواردة من جدة ، فالأول فى جدة والثانى فى الطور) . وفى ميناء الفسطاط يفرغون حمولة السفن من التوابل لتوزع بعد دفع المكوس عليها إلى دمشق والإسكندرية^(٢) وبسبب قرب الفسطاط من النهر ووجود الميناء بها نشطت حركة التجارة والأسواق فيها « وكانت أرخص أسعاراً وأكثر أرقاقاً من القاهرة^(٣) » وذلك لأن المراكب التى كانت تجلب البضائع والمتاجر كانت ترسو بساحلها وهناك يباع ما يصل فى المراكب ولا يحدث ذلك فى القاهرة نفسها لبعدها عن النهر ، وقد ذكر ابن شاهين الظاهرى أن ما بساحلها من المراكب كانت نيفاً عن ألف وثمانمائة مركب كما كانت بالساحل الشون السلطانية التى يوضع بها ما يستعمل من الغلال والأحطاب والأتبان وما أشبه ذلك ، والأهراء التى تخزن بها الغلال ولا تفتح إلا عند الضرورة وكان لها مركب تعرف « بالدردمونة » قيل أنها تحمل خمسة آلاف أردب وتحول الغلال إلى الشون ، وكانت هناك مراكب أخرى

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٦٦ .

Dopp : L'Egypte au Com : p. 46.

(٢)

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٦٦ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ١٠٨ .

غيرها تحول الغلال إلى الشون والأهراء السلطانية^(١) كذلك كان سوق الغلال موجوداً بنفس ساحل الفسطاط^(٢) وكان القمح وغيره من الغلال يوضع أيام النيل على الساحل من المقس حتى باب القنطرة عرضاً بينما تقف المراكب من جانب المقس حتى منية السبرج طولاً ، ويصير عند باب القنطرة في أيام الفيضان من المراكب التي تحمل الغلة وغيرها ما يستر الساحل كله^(٣) ، ومع ذلك فإن ساحل بولاق كان أكبر من ساحل الفسطاط وأكثر اتساعاً وكان يرد إليه أكثر مما يرد إلى ساحل مصر^(٤) وكان لهذا الساحل رصيف كبير تفرغ عليه البضائع كما يتضح من كلام ابن آياس في حوادث سنة ٩١٦ هـ حين وصلت مراكب تحمل هدايا من عند ابن عثمان (السلطان العثماني) « ... فوصلت بولاق عند الرصيف وشرعوا يحولون ما فيها إلى القلعة . . »^(٥) وفي أوقات الغلاء والحجاعات كانت السفن ترابط بحمولتها من الغلال في وسط النيل بالمرسى بعيداً عن الشاطئ خوفاً من النهب ويتوجه الناس إليها في القوارب لشراء ما يريدون^(٦) .

وقد وصف لنا الرحالة طافور السفينة النهرية التي نقلته من دمياط إلى القاهرة وصفاً دقيقاً قد يعيننا على تصور شكل سفن الركاب النيلية في ذلك العصر فهي طويلة وبها عدة حجرات تمتد عبر أنحاء السفينة كما أنها مجهزة بصنادل منبسطة حتى تستطيع السير في المياه الضحلة ، كما أن هذه المراكب تحمل كثيراً من البضائع ولها قلع مثلث الشكل ، ولكن إذا عاكسها التيار فلا بد أن يجذبها الرجال بحبال من الشاطئ حتى تستطيع مواصلة سيرها رغم أنها تعمل بالأشعة والمجاديف ، وكان على هذه المركب طبول ثلاثة لإخافة التماسيح وإبعادها عن طريق السفينة إحداهما في المقدمة والثانية بالوسط والثالثة في مؤخرة السفينة^(٧) .

وكانت السفن (النيلية منها والبحرية) تبنى في « الصناعة » وهو اسم أطلق على

(١) خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ ، ٢٨ ، ص ١٢٣ - ١٢٣ .

(٢) رحلة طافور : ص ٦٤ .

(٣) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٢٢ .

(٤) ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ / ٢٨ .

(٥) ابن آياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٠١ (نشر محمد مصطفى) .

(٦) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ / ص ٤١٤ ، ابن حجر أنباء الغر ج ٢ ورقة ٨٥ (مخطوط) .

(٧) رحلة طافور ص ٦٣ .

مكان بناء المراكب ، وقد بنيت بجزيرة الروضة سنة ٥٥٤ هـ ، واستمرت قائمة مكانها حتى نقلها الإخشيد إلى ساحل القسطنطين سنة ٥٣٢٥ هـ وسبب نقل الصناعة من جزيرة الروضة أن ابن طنج الإخشيد تعرض لثورة بعض الثوار بعد دخوله مصر واستطاع هؤلاء قتل قائد أسطولهم كما أحرقوا كل ما في جزيرة الروضة من سفن ثم ومن لم يستطع أن يقوم بعمل حاسم ضدهم ، فنقل دار الصناعة إلى القسطنطين عن اعتقاد بأن « صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشيء » .

ثم أعيدت مرة أخرى إلى القسطنطين سنة ٥١٦ هـ^(١) ، ولم تكن هذه هي الترسنة الوحيدة لصناعة المراكب والسفن ، فقد وجدت عدة دور لصناعة السفن في عصر سلاطين المماليك منها واحدة بالإسكندرية وثانية بدمياط وثالثة برشيد^(٢) .

وقد حرص سلاطين المماليك على بناء أسطول قوى لحماية الشواطئ والمدن الساحلية المصرية من جهة ، وتأمين السفن التجارية في البحر المتوسط ضد القراصنة من جهة أخرى ، واشتهر السلطان الظاهر بيبرس من بين السلاطين بعنايته الكبيرة بصناعة السفن واهتم بحفظ « الثغور والشواني^(٣) وحفظ السواحل والموانئ . . . » فاهتم بتوفير الأخشاب اللازمة لذلك سواء باستيرادها من الخارج أو من إنتاج البلاد ، وكان يباشر العمل بنفسه^(٤) . وقد أدرك الظاهر بيبرس قيمة النهر كطريق للحملات العسكرية ، ومدى أهميته في الدفاع عن البلاد ، ومن ثم فإنه حين زار ثغر دمياط سنة ٦٦٢ هـ أمر بردم فم بحر الدمياط (فرع دمياط) وتضييقه حتى لا تستطيع سفن العدو الكبيرة دخوله ، ويعد هذا الإجراء بمثابة تحصين للبلاد في وقت احتدم فيه الصراع^(٥) ضد الصليبيين ، كذلك اشتهر عن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون اهتمامه بالأسطول فرغم قصر مدة

(١) السيوطي : كوكب الروضة : ص ٢٣ - ٢٤ (مخطوط) سيدة الكاشف : مصر في عصر الإخشيد ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٤٧ .

(٣) الشواني : جمع شين وهو أكبر أنواع السفن الحربية في ذلك الوقت وله مائة وأربعون مجدافاً (سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٤٣٠) .

(٤) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٥٦٨ هـ ، وحوادث سنة ٥٦٩ هـ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ / ورقة ٦٥ (مخطوط) .

(٥) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٥٦٢ هـ (مخطوط) .

حكمه أنشأ عدداً كبيراً من السفن واستعرضها في احتفال كبير^(١).

وثمة تقليد كان سلاطين المماليك يراعونه دائماً ، ذلك أنه بعد الفراغ من بناء السفن كان يقام احتفال كبير فوق مياه النهر ، وتقوم المراكب والسفن باستعراض ومناورات كانت تستهوى جموع المصريين فيحتشدون للفرجة بأعداد غفيرة ، ويستأجرون المراكب في النيل بأسعار مرتفعة ، وتقوم السفن بدق الكوسات وإطلاق النفوط وكأنها في حالة اشتباك حقيقي مع سفن العدو ، وأول استعراض نسمع عنه في ذلك العصر هو الذى حدث سنة ٨٦٥٩هـ، فبعد أن أتم الظاهر بيبرس بناء عدد كبير من الشوانى والطرائد^(٢) وغيرها من المراكب ركب هو والخليفة إلى ساحل القسطنطينية حيث « تفرجا على لعب الشوانى . . » بحضور جمع غفير من أبناء الشعب^(٣) . وفى سنة ٧٠٢هـ وبعد أن تم بناء عدد من السفن ، ركب فيها المقاتلون بأسلحتهم وعتادهم ونزل السلطان والأمراء من القلعة إلى الساحل ووقف العسكر على البر « . . . واجتمع من العالم مالا يحصيهم إلا الله . . . » وامتألت ضفتا النهر من بولاق حتى جزيرة الروضة بالمتفرجين « . . حتى لم يوجد موضع قدم خال . . » وبلغت أجرة المركب الذى يحمل عشرة أنفس مائة درهم ، « وبرزت الشوانى للعب كأنها في الحرب » ، وامتدت المناورة فترة من الزمن والناس فى سرور بالغ لما يشاهدون ، ولكن البهجة لم تكتمل إذ انقلب أحد هذه المراكب وغرق قائد الحملة « الأمير جمال الدين آقرش »^(٤) . كذلك حدث سنة ٧٦٤هـ استعراض ومناورة لبعض قطع الأسطول على صفحة نهر النيل « . . . وكان من الأيام المشهودة لم ير مثله فى سالف الأعصار . . »^(٥) وهكذا فإن هذه الاحتفالات كانت ماثراً اهتمام كل الناس .

وجدير بنا أن نذكر أن بناء المراكب والسفن كان يتم اعتماداً على العمال المأجورين من أهل هذه الحرفة ولكنهم — فى بعض الأحيان — كانوا يتعرضون للظلم وانقاص

(١) المقرئى الخطط ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) الطرائد : جمع طريدة ، وهى مركب تستخدم لحمل الخيل والفرسان ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارساً (انظر سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٣١) .

(٣) المقرئى : السلوك : ج ١ / ق ٢ ص ٤٥١ ، النويزى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٢٤ (مخطوط) .

(٤) السيوطى : كوكب الروضة ص ٣٩ (مخطوط) ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٢٨ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٥ / ٣٦ (ط . دار الكتب) .

أجورهم ، وإرهاقهم في العمل^(١) وحين يكون الأمر متعلقاً بأمور الجهاد كان المتطوعون يساهمون بجهودهم بجانب الصناعات المحترفين في بناء هذه السفن ، مثال ذلك ما حدث سنة ٧٦٧هـ حين تقدم جماعة من المغاربة رجال البحر لمساعدة صناعات المراكب ، وحين تم العمل وتمت عمارة المراكب التي كان عددها مائة قطعة ما بين غربان وطرديد ، جهزت بالرجال والآلات ، وزينت بالأعلام واحتشد جمع غفير من الناس لمشاهدة مناورة بحرية فوق مياه النيل بحضور السلطان والأمراء وكبار رجال الدولة^(٢) .

واستمرت هذه الاحتفالات والاستعراضات البحرية فوق مياه نهر النيل والاهتمام بأمرها - لا سيما بعد إنجاز العمل في بناء بعض المراكب والسفن - حتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، ففي عام ٩١٤ هـ شهدت مياه النيل مناورة بحرية لعدد من القطع البحرية كانت قد صنعت في رشيد ، وجرى بها إلى ساحل النيل ، ونزل السلطان من القلعة وبصحبه كبار الأمراء واحتشدت جماهير العامة لمشاهدة ذلك الاستعراض الذي وزعت الخلع في نهايته على ناظر الخاص ورئيس المراكب وجماعته^(٣) وفي سنة ٩١٨ هـ تمت عمارة مركب كبير للسلطان فأحضر إلى ساحل القسطنطينية أمام المقياس وصنعوا له ثمانية مراسي في النهر وعلقوا في صواريه القناديل والأعلام وأحضرت النفوط وأنزلت في خمسين مركباً ، وحضر الأمراء المقدمون بطبليخاناتهم في مراكب أمام المقياس « . . . وكانت تلك الليلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم فإنها كانت من الليالي المشهودة في القصف والفرجة ، وقد بلغ كرى المركب في تلك الليلة خمسة دنانير وأكثر والمراكب التي هي راسية على البر انشجنت بالخلایق ، فأخذوا من ذلك على كل رأس أربعة أنصاف فتحصل من ذلك مال كثير للنوادية . . . »^(٤) وهذه الصورة التي يرسمها المؤرخ ابن أياس وغيره من المؤرخين المعاصرين ، تدل بوضوح على ما كانت هذه الاحتفالات والاستعراضات البحرية في نهر النيل تلقاه من اهتمام المصريين على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم .

ومن ناحية أخرى حملت مياه النيل كثيراً من الحملات التي خرجت من

(١) المرجع السابق : ج ٧ ص ٤٨ (ط . كاليفورنيا) .

(٢) المقریزی السلوك ج ٣/ق ١ ص ١١٣ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٢ - ١٤٣ (نشر محمد مصطفى) .

(٤) المرجع السابق : ج ٤ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

القاهرة إلى الثغور لمحاربة الصليبيين ، وقراصنة البحر المتوسط ، بل أن بعض المعارك — في نهاية العصر الأيوبي وبداية عصر السلاطين المماليك — دارت فوق مياه النهر وفروعه ، فقد شهد نهر النيل بعضاً من المعارك التي دارت ضد الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا والتي انتهت بالفشل وأسر لويس التاسع نفسه ، ففي بعض مراحل هذه المعركة أعدت سفن المسلمين كميناً في فرع النهر قرب المحلة ، بعد أن حملت السفن من القاهرة على ظهور الجمال وهي مفككة وأنزلت بعد تجميعها في النهر وشحنت بالمقاتلين والأسلحة ، ولما جاءت سفن الصليبيين فاجأها السفن الإسلامية وجاءت بعض السفن الأخرى من جهة المنصورة ودارت معركة أسفرت عن نصر حاسم لمراكب المسلمين التي استولت على مراكب الصليبيين بما فيها من العتاد والأسلحة والمؤن وأسر نحو ألف من رجالها وأرسلوا إلى معسكر المسلمين على الجمال ، وقد صادف وقت حدوث هذه المعركة أن كان الفيضان والطرق البرية مقطوعة من كثرة المياه ومن ثم انقطع خط تموين الفرنج من دمياط « . . . ووقع الغلاء عندهم ، وصاروا محصورين ولا يطيقون المقام ولا يقدرّون على الذهاب . . . »^(١) وثمة معركة نهريّة أخرى خلال هذه الحملة الصليبية انتهت بنصر المسلمين واستيلائهم على اثنتين وثلاثين مركباً للصليبيين من بينها تسع شوانى (وهى أكبر أنواع المراكب الحربية) ، « فاشتد الغلاء عند الفرنج وصاروا يرسلون السلطان لطلب الهدنة . . . »^(٢) .

وتوالى الحملات لمحاربة الصليبيين وتأديب قراصنة البحر المتوسط الذين دأبوا على مهاجمة سفن المسلمين وكانت المراكب تخرج من ساحل القاهرة لتسير في النهر وفروعه إلى دمياط والإسكندرية أو رشيد حيث تخرج بعد ذلك إلى البحر المتوسط ، وعند خروج هذه الحملات كان الناس يحتشدون على الشاطئ للفرجة وترتفع الأصوات بالدعاء بالنصر والعود الظافر بين دقات الطبول والزمر والكوسات التي عادة ما كانت تصحب مظاهر الاحتفال بخروج إحدى التجريدات ، ونسوق مثالا على ذلك ما حدث سنة ٨٢٨هـ — ٨٢٩هـ في عهد السلطان الأشرف برسبای إذ شهد شاطئ النيل احتفالا يجل عن الوصف بخروج الحملات ضد جزيرة رودس فقد تجمع الناس في ذلك « اليوم

(١) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧هـ (مخطوط) ، المقریزی : السلوك ج ١ / ق ٢ ص ٣٥٣ /

٣٥٤ ، الخطط ج ١ ص ٢٢٠ / ٢٢١ .

(٢) المقریزی : السلوك ج ١ / ق ٢ ص ٣٥٤ .

المشهود « للفرجة على المسافرين برسم الغزو من الأقطار والنواحي » . . . حتى صار ساحل بولاق لا يستطيع الرجل أن يمر فيه لحاجته إلا بعد تعب ومشقة زائدة . . . « وعبر الناس النيل إلى البر الغربي حيث نصبوا الخيام والأخصاص ، وامتألت صفحة النيل بمراكب المتفرجين . . . « وأما بيوت بولاق فلم يقدر على بيت منها إلا من يكون له جاه عريض أو مال كبير . . . » وبعد نهاية الاحتفال سارت السفن في النيل إلى دمياط والإسكندرية استعداداً للسفر إلى رودس ، بين فرح الناس وسرورهم وابتهاهم إلى الله سبحانه وتعالى بنصر المسلمين وعودتهم بالسلامة والغنيمة^(١) .

وحين تتعرض سواحل الشمال لعبث الفرنج واعتداءاتهم ، أو حين يعترضون سبيل المراكب التجارية في البحر المتوسط ويستولون عليها كانت الحملات تخرج عبر نهر النيل وفروعه من القاهرة لمواجهة مثل هذه الاعتداءات فقد حدث - مثلاً - سنة ٨٤٣هـ أن هاجمت مراكب الفرنج مدينة رشيد واستولت على بعض الأبقار وغيرها فخرجت من القاهرة حملة بقيادة الأمير « اسنبغا الطياري » ، والأمير « شاربك الحكيمى » وهما من أمراء الألواف بالديار المصرية^(٢) وفي سنة ٨٤٤هـ أمر السلطان الظاهر جقق بخروج حملة للقضاء على « عبث الفرنج في البحر واخذها مراكب التجار . . . » وقد خرجت هذه الحملة المكونة من خمسة عشر غراباً فيها المقاتلون من المماليك السلطانية والمتطوعون من عامة الناس من ساحل بولاق في احتفال هائل حضرته جموع المصريين التي دأبت على مشاهدة مثل هذه الاحتفالات وتكررت الصورة ولنفس السبب سنة ٨٤٦هـ ، وفشلت الحملة الأخيرة وإن كان خروجها من ساحل بولاق قد تم بين مظاهر الاحتفال المعهودة في مثل هذه المناسبات^(٣) .

وعند عودة الأساطيل من الغزو إلى ساحل القاهرة في بولاق أو الفسطاط ، كان الناس يجتمعون للاحتفال بقدموها بنفس الحماسة الذي كانوا يودعون بها الحملات المتوجهة للغزو ؛ ففي سنة ٨٢٩هـ بدأ دخول الغزاة (الذين كانوا قد توجهوا لغزو قبرس

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة : ج ٦ ص ٥٨٨ - ٥٨٩ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ (ط . كاليفورنيا) .

(٢) المرجع السابق : ج ٧ ص ١١٢ (ط - كاليفورنيا) .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٧١٨ (مخطوط) ، ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة : ج ٧

ص ١١٢ ، ١٢٢ (ط . كاليفورنيا) .

في عهد السلطان الأشرف برسباي . إلى ساحل بولاق ، ووافق ذلك يوم وفاء النيل وعيد الفطر » . . فتضاعفت مسرات الناس من كل جهة . . «^(١) كما حدث سنة ٧٨٧ هـ أن قدمت بعض سفن الأسطول المصري إلى ساحل بولاق وهي تحمل الأسرى والغنائم فاجتمع الناس لمشاهدتها والاحتفال بها^(٢) .

ومهما يكن من أمر فقد تكررت مشاهد خروج التجريدات بكثرة طوال عصر سلاطين المماليك ، ويضيق بنا المقام عن تتبعها ، إلا أننا يجب أن نشير إلى أن النهر العظيم قد شهد المعارك الأخيرة في حياة دولة المماليك كما سبق أن شهد المعارك الأولى ضد الصليبيين ، ففي سنة ٩٢١ هـ بلغ السلطان أن العثمانيين ينوون مهاجمة ثغرى الإسكندرية ودمياط ، فترل السلطان إلى الساحل وعدى إلى بر امبابية حتى يتكامل خروج العسكر في السفن لا سيما أن النيل كان قد زاد إلى حوالي عشرين ذراعاً وغمرت المياه الأراضي وتقطعت الطرق ، ولم تكن هناك وسيلة لنقل الجنود سوى السفن ولكن الجنود « قاسوا كثيراً في المراكب بسبب الحمول .. »^(٣) كذلك كانت السفن النيلية هي الوسيلة الرئيسية لنقل قوات العثمانيين خلال المعارك التي خاضوها ضد إفاول المماليك بقيادة السلطان طومانباي^(٤) وفي بعض مراحل الصراع دارت معركة قرب اطفيح بين مراكب طومانباي ، ومراكب العثمانيين بقيادة جانم السيفي كاشف الفيوم الذي كان قد انحاز إلى جانب العثمانيين^(٥) وفي معركة أخرى تمكن الأمير « شاربك الأعور » من الاستيلاء على مراكب العثمانيين كلها فيما عدا مركبين استطاعا الفرار^(٦) مما كان له أبلغ الأثر في إلحاق الهزيمة بالعثمانيين في هذه المعركة الجانبية .

وكما شهدت صفحة النيل المعارك والحملات لتأمين البلاد ضد الأخطار الخارجية فقد شهدت أيضاً بعض معارك الصراع الداخلي فيما بين أمراء المماليك ، والأمثلة كثيرة نسوق منها ما حدث سنة ٧٦٤ هـ في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين ، فقد

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ج ٦ ص ٦١٢ (ط . كالفورنيا) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ / ق ٢ ص ٥٣٣ .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٧٥ (نشر محمد مصطفى) .

(٤) ابن زفيل : آخرة المماليك ص ٦٣ - ٦٧ .

(٥) المرجع السابق : ص ٦٣ - ٦٤ .

(٦) المرجع السابق : ص ٦٨ .

اتفق جماعة من مماليك الأمير يلبغا على قتله لكثرة ظلمه وعسفه ، ولكنه أحس بالمؤامرة فهرب وعدى النيل ، ومنع سائر المراكب من العبور خلفه ، فأخذ ولاية الجيزة في جمع السفن والمراكب التي كان قد بناها للغزو من شاطئ النيل فجمعوا منها عدداً كبيراً وساروا بها جميعاً إلى بولاق وفيها آلات الحرب لقتال يلبغا ، وفي أثناء سلطنة السلطان الأشرف شعبان ثار عليه الأمير يلبغا وانضم إليه الأمير آنوك بن أخى السلطان واستمرت المعارك بين السلطان ويلبغا عبر نهر النيل عدة أيام ، بينما تعطلت أسواق القاهرة « وليس للناس شغل سوى التفرج في شاطئ النيل على المقاتلين من السلطانية واليلبغاوية .. » ، وفي هذه الأثناء تعصب العامة للسلطان الأشرف شعبان وسبحوا إليه ، وانتهى الأمر بفرار يلبغا إلى القاهرة حيث قتله مماليكه^(١) كذلك حدثت معركة في نهر النيل بين بعض المماليك المتآمرين على الفتك بالسلطان الناصر فرج بن برقوق من ناحية والأمير طوغان ومماليكه من ناحية أخرى انتهت بمقتل الأمير جانم زعيم المؤامرة^(٢) وكان الأمراء الذين يقبض عليهم يرسلون إلى السجون في الإسكندرية وقوص وغيرهما في المراكب النيلية ؛ من ذلك ما حدث سنة ٧٤٢ هـ حين وصل الأمراء الذين كان الأمير قوصون قد حبسهم في الإسكندرية إلى القاهرة ، وتوجهت نفس الحراقة التي^(٣) جاءت بهم تحمل قوصون نفسه ليسجن في الإسكندرية في عهد السلطان شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون^(٤) كذلك حدث سنة ٧٩١ هـ أن حمل الأمراء المسجونون في الحراريق إلى سجن الإسكندرية في سلطنة المنصور حاجي^(٥) وحدث سنة ٧٨٤ هـ أن أخرج السلطان برقوق ثلاثة وأربعين مملوكاً من المحبوسين وأمر بتخشيبيهم وتقييدهم بالحديد ، وأنزلوا في المراكب بساحل مصر القديمة وتوجهوا إلى قوص^(٦) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ج ١١ ص ٣٦ / ٤٠ (ط . دار الكتب) السلوك ج ٣ / ق ١ ص ١٣٣ / ١٣٦ ، السيوطي : كوكب الروضة : ص ٤٠ - ٤١ (مخطوط) .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٣٣٤ (مخطوط) .

(٣) الحراقة ، وجمعها حراريق : نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية وفيها مواضع الرى بالنيران ، وقد استخدم نوع منها أثناء الاستعراضات التي شهدتها نهر النيل ، ويتضح من كلام المقرئى أنها استخدمت أحياناً لنقل المسافرين (انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٠٨) وانظر كذلك .

Quatremère : Vol. I p. 142.

(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ / ق ٢ ، ص ٥٩٥ .

(٥) المرجع السابق ج ٣ / ق ٢ ص ٦٢٧ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٣ .

كان العربان في مصر في عصر سلاطين المماليك مصدراً لإثارة الفتن والمصاعب في وجه الحكومة باستمرار كما أن الفلاحين في قراهم ، وسكان المدن لم يسلموا من أذاهم ، وكثيراً ما خرجت الحملات ضدهم ، ولكن ذلك لم يقض على اعتداءاتهم على القرى والمدن واعتراضهم طريق قوافل الحج ، وظلوا مصدراً لاضطراب الأمن في البلاد طوال ذلك العصر . وليس هذا مجال تتبع مجهودات سلاطين المماليك ضد العربان وفسادهم ومن ثم سنكتفي بذكر بعض الحملات والتجريدات التي كان نهر النيل طريقها ؛ ففي سنة ٧٠١ هـ كثر فساد العربان وقطعهم الطريق واستهتارهم بالحكومة لدرجة أنهم فرضوا الأتاوات على سكان أسيوط ومنفلوط من التجار وغيرهم ومنعوا الحجاج ، وتسموا بأسماء أمراء المماليك وجعلوا لهم كبيرين أحدهما سموه « سار » ، والآخر « بيبرس » وأطلقوا سراح المسجونين فتهجرت حملة لتأديبهم قسمت إلى أربعة أقسام أحدها يتوجه في النيل^(١) وقد تظاهر الأميران سار وبيبرس بأن هذه الحملة متوجهة إلى الشام ، وتطرف المماليك في الانتقام حتى لم يعد بالإمكان حصر عدد القتلى واقفرت البلاد إلا من النسوة والأطفال^(٢) وتكرر الأمر سنة ٧١٣ هـ وفي هذه المرة سافر السلطان بنفسه لتأديب العربان ، وزيادة في الحيلة أشاع أنه مسافر للصعيد وقبض على كثير من العربان وأرسلهم مقيدون في المراكب إلى القاهرة^(٣) وفي سنة ٧٥٣ هـ توجهت حملة أخرى إلى الصعيد في البر وعلى مياه النهر بقيادة الأمير « أرنا » ، والأمير « قطلوبغا الذهبي » والأمير « علم دار » .. بسبب نفاق العربان ، وقطع الطريق على المسافرين ، وتشليح الأجناد ..^(٤) .

وهكذا لعب النيل دوره كوسيلة لنقل الحملات التأديبية ضد العربان ، فقد كانت السفن تحمل الجنود وسلاحهم إلى الصعيد باعتبارها الوسيلة الأسرع والأفضل لا سيما في أوقات الفيضان حيث يتعسر السير في الطرق البرية ، وكانت هذه السفن تعود بالأسرى والغنائم بعد هزيمة العربان .

كذلك استلزمته سلسلة الحملات التي قام بها سلاطين المماليك ضد النوبة نقل

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٠ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق/٣ ص ٩٢٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ق/٣ ص ٩٢١ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ق/١ ص ١٢٩ .

(٤) المرجع السابق ج ٢ ق/٣ ص ٧٧٨ .

الجنود والمؤن والأسلحة الخاصة بهذه الحملات في المراكب النيلية ، ففي سنة ٦٧٤ هـ كثر تعدى « داود » متملك النوبة الذى هاجم عيذاب وأسوان وحرق الدور وخرب المدينتين وارتكب أفعالا شنيعة ، وحاول الأمير « علاء الدين الخازندار » والى قوص أن يلحق به في أسوان ولكنه استطاع الفرار ، فأرسلت حملة برية ونهرية من القاهرة إلى النوبة حيث دار القتال في النهر وعلى شاطئيه ، وانتهى بنصر جنود المماليك على ملك النوبة^(١) ، وفي سنة ٦٨٨ هـ جرد السلطان بيبرس حملة أخرى إلى النوبة بصحبة ابن أخت متملك النوبة المدعو « شكنده » وكان قائد الحملة الأمير « عز الدين الأفرم » والأمير « شمس الدين آقسنقر الفرقاني » وصحبت الحملة خمسمائة مركب « . ما بين حراريق ومراكب كبار وصغار تحمل الزاد والسلاح والأثقال » وحين وصلت الحملة إلى ثغر أسوان واصلت سيرها حتى وصلت جزائر ميكائيل عند الجنادل وهرب الملك داود إلى إحدى الجزر ، ولم تستطيع المراكب مواصلة السير « . لتوعر النيل بالأحجار . . . » في هذه المنطقة ، وانتهى الأمر بتنصيب شكنده ملكاً وخضوع النوبة لنفوذ السلطان الظاهر بيبرس تماماً^(٢) . وتوجهت عدة حملات بعد ذلك لمحاربة النوبة بعد أن شنت عن الطاعة في عهد ملكها سمamon أهمها الحملة التي أرسلها السلطان المنصور قلاوون ، وانتهت بهروب سمamon بمراكبه حين واجه الأسطول المملوكي ، ولكن الأمراء والأساقفة والقسوس الذين كانوا معه قدموا يطلبون الأمان من قائد الحملة المماليكية^(٣) واحتفل المماليك بانتصارهم بأن استعرضوا السفن والمراكب في النيل أمام دنقله بعد أن زينوها بالأعلام وجهازوها بالنفوط^(٤) . وفي سنة ٧٦٧ هـ كثر فساد أولا الكتر^(٥) وقطعهم الطريق على التجار وأخذهم الأموال واستولوا على ثغر أسوان ، واشتدت شوكتهم ومن ثم توجهت حملة بقيادة الأمير « آقتمر عبد الغنى » لردعهم وسارت المراكب في النيل بجذاء الحملة البرية وعندما وصلت إلى أسوان نقلت الأسلحة التي كانت في المراكب

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ١٠٨ - ١٠٩ (مخطوط) ، تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٤٥ - ٤٧ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ١٠٩ - المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٢٦ .

(٣) المرجع السابق ج ٢٩ ورقة ١١ - ١٢ (مخطوط) .

(٤) المقريزى السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٤٩ - ٧٥٢ .

(٥) بالمرجع السابق ج ٣ ق ١ ص ١٠٩ حاشية رقم (١) أن الكنوز قبيلة تنسب إلى كثر الدولة دخلت النوبة وحكمتها .

إلى البر . ويتضح من أخبار^(١) هذه الحملة أن الجنادل كانت تمثل عقبة حقيقية في وجه الملاحة ، ومن ثم كان يتحتم تفريغ المراكب من حمولتها حتى يمكن تسييرها عبر منطقة الجنادل ثم يعاد شحنها مرة أخرى حين تسمح مياه النهر بالملاحة^(١) .

خلاصة القول إن نهر النيل كان المحور الرئيسى للحياه العامة في مصر فهو شريان التجارة الداخلية الرئيسى في ذلك العصر ، كما كان طريقاً للمواصلات تدير فيه المراكب بالمسافرين والبضائع عبر أنحاء البلاد واستخدم أيضاً أثناء الحروب سواء الخارجية منها أو الداخلية كوسيلة رئيسية وطريق أساسى لنقل الجنود وأسلحتهم ومعداتهم ما بين أجزاء البلاد . ويجدر بنا أن نلاحظ أيضاً أنه أثناء الفيضان العالى وحين تغمر المياه وجه الأرض لم تكن هناك وسيلة للانتقال بين القرى والمدن سوى المراكب والقوارب ، وقد ساهمت طبيعة تكوين البلاد في إكساب النهر هذه الأهمية ، فالمنطقة المسكونة إنما هي تكوين فيضى من ترسيبات طمي النيل كوّن شريطاً زراعياً يمتد من الجنوب إلى الشمال على ضفتي النهر ، كما هو الحال في الدلتا التي تقترب فيها المنطقة الزراعية المأهولة بالسكان من النهر وفروععه ، ومن ثم كان طبيعياً في ذلك العصر أن تكون المراكب والسفن النيلية والقوارب هي الوسيلة الأسهل والأسرع والأكثر أمناً للانتقال بين أنحاء البلاد .

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ / ق ١ ص ١٠٩ / ١١١ .

الباب الرابع

نهر النيل في كتابات المعاصرين

- المؤرخون والجغرافيون (القصص الديني -
- الأساطير - النيل وصفاته) - الشعراء والأدباء -
- الرحالة الشرقيون والغربيون » .

إذا كانت مشكلة معظم الباحثين في بعض الموضوعات هي قلة المصادر فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن يحاول أن يبحث شيئاً يتعلق بنهر النيل ؛ ذلك أن النهر الخالد كان محط اهتمام كل كتاب ومؤلفي مختلف العصور وخاصة عصر سلاطين المماليك الذي حفل بالنشاط العلمي . فقد كانت مصر ، في ذلك العصر ، محوراً لنشاط علمي كبير إذ قصدوها العلماء وطلاب العلم من شتى أقطار العالم الإسلامي ، وخير دليل على ذلك النشاط العلمي ما خلفه علماء وأدباء ذلك العصر من تراث ضخم من موسوعات ، وحوليات تاريخية ومؤلفات شتى في مختلف العلوم والفنون^(١) ويرجع هذا النشاط العلمي الضخم في مصر آنذاك إلى الكوارث التي ألمت بالبلاد الإسلامية في القرن السابع الهجري ، فقد سقطت الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول الذين هددوا الشام أيضاً ، كما انقض الصليبيون على مسلمي الأندلس يستولون على ممتلكاتهم وهكذا فر كثير من علماء تلك البلاد وأدبائها وشعرائها إلى مصر التي كانت تتمتع باستقلال وقوة ومنعة نسبية ، فجعلوها ميداناً لنشاطهم العلمي وشمروا عن ساعد الجدد في البحث والدراسة وكان طبيعياً أن يلقي النهر الخالد الكثير من اهتمامهم ، ويصبح موضوعاً هاماً لبحثهم ومجالاً لخيالاتهم ومسرحاً لتفكيرهم ومراحاً لحدسهم وتخمينهم ولا يغرو فالنهر العظيم هو قوام الحياة المصرية ، وعليه مدارها .

وبلغ من اهتمام علماء عصر سلاطين المماليك بنهر النيل أن أفرد البعض كتباً

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤١ .

تبحث في نهر النيل ، وتتحدث عن كل ما يتعلق بالنهر من أمور ، ومن هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر كتاب « الفيض المديد في النيل السعيد » للمنوفى ، وكتاب « نيل الرائد في النيل الزائد » للحجازى ، وكتاب « الكلام على النيل » لعبد الرحمن السيوطى ، وكتاب « مبدأ النيل على التحرير » للمحلى كما أن شمس الدين الجوجرى (من كتاب القرن التاسع الهجرى) أنشأ منظومة من مائة وعشرين بيتاً يتكلم فيها عن النيل وفضائله ومزاياه ، ويشرح أحواله وعجائبه ومن أين يجىء وأين ينتهى^(١) . وقد حظى النيل باهتمام كبار مؤرخى ذلك العصر مثل « تقي الدين المقرئى » و « ابن تغرى بردى » وابن أبياس ، وغيرهم . بل أن المقرئى أفرد كتاباً لمعالجة الأزمات الاقتصادية والمجاعات والأوبئة الناجمة عن قصور النيل وتعرض لأسباب هذه المجاعات كما تعرض لوصف طبقات المجتمع ووسائل الحكام فى معالجة هذه المجاعات^(٢) . كما حرص بعض كبار المؤرخين على ذكر أخبار النهر وفيضانه السنوى بانتظام فى مؤلفاتهم فإن المؤرخ أبا المحاسن يوسف بن تغرى بردى يختم الحديث عن حوادث العام فى حوليته الشهيرة بذكر أحوال النيل ، وما تبقى من الماء القديم فى النهر ، ومقدار الزيادة الجديدة^(٣) . بينما حرص ابن أبيك الدودار على افتتاح الكلام عن أحداث السنة فى حوليته بذكر أحوال النهر ومقدار الماء القديم المتبقى فى النهر ثم مقدار الزيادة بادتاً أحداث العام بقوله « النيل المبارك فى هذه السنة^(٤) » زد على ذلك أن وفاء النهر أو قصوره كان موضع اهتمام معظم كتاب ذلك العصر إن لم يكن موضع اهتمامهم جميعاً .

وقد شابت الكتابات التى تناولت النيل من وجهة نظر الجغرافيا الخرافات والأساطير التى يحتمل أن تكون ذات أصل مسيحى ويهودى^(٥) وعموماً فإن الصورة التى تعطيها

(١) انظر منظومة الجوجرى (شمس الدين محمد الجوجرى الشافعى ت ٨٨٤٦) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٧٠ جغرافيا .

(٢) انظر كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٠ .

(٣) انظر « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » طبعة دار الكتب حتى ج ١٤ وطبعة كالفورنيا .

(٤) انظر « كنز الدرر وجامع الغرر » مخطوط بدار الكتب ، وانظر كذلك « الدرر الفاخر فى سيرة الملك الناصر » وهو الجزء التاسع من كنز الدور نشر روبر - القاهرة سنة ١٩٦٠ .

لنا تلك الكتابات صورة مشوشة ومضطربة وتعتمد أساساً على النقل من القدماء لا سيما بطليموس الجغرافى ، ولم تزد معلوماتهم فى هذا المقام كثيراً عما أورده القدماء ولكن وصفهم لمجرى النهر من الجنادل فى منطقة أسوان حتى مصبه فى البحر المتوسط تتسم بالدقة ، ونظراً لأن منابع النيل كانت مجهولة لديهم ، كما أن الأحراش والأدغال التى تعترض مجرى النيل فى أعاليه كانت عقبة كؤوداً فى وجهه من حاول تتبع مجرى النهر الأعلى حتى المنابع^(١) ، فقد تصورت الأساطير والحرافات التى أوردها كتاب ذلك العصر منطقة المنابع أرضاً خيالية تنبت فيها قضبان الذهب والفضة والنحاس والحديد ، ويجرى فيها بحر من الزيت تنبت منه الروائح الكريهة التى تقضى على من يقرب من المنطقة التى توجد بها أيضاً أحجار مغناطيسية تجتذب كل من ينظر إليها وتقضى عليه . ويعكس ذلك - بطبيعة الحال - جهل كتاب ذلك العصر بمنطقة المنابع من ناحية ، والخوف من المجهول فى تلك المنطقة من ناحية أخرى .

ويتفق معظم جغرافيين ذلك العصر ومؤرخيه على أن النهر ينبع من جبال القمر خلف خط الاستواء من عيون فى الأرض تجتمع فى عشرة روافد تجتمع كل خمسة منها لتصب فى بحيرة ثم تخرج ستة أنهار من البحيرتين لتجتمع مرة أخرى فى بحيرة واحدة حيث يخرج نهر النيل^(٢) وقد وصل بعضهم إلى حد الزعم بأن نهر النيل ونهر السند ينبعان من أصل واحد ، ودليلهم فى ذلك اتفاق زيادتهما ووجود التماسح فيها^(٣) وربما يكون ذلك هو السبب فى نسب نهر النيل إلى أنهار الجنة التى كان مكانها وفقاً للنظرية السائدة آنذاك فى أقصى الشرق وعلى الناحية الأخرى من بحر الظلمات (الأقيانوس)^(٤) .

(١) ظلت هذه العقبة موجودة حتى العصر الحديث حين بدأت حملات الاستكشاف تخرج إلى منطقة أعالي النيل منذ عهد محمد على حتى تم استكشاف هذه المنطقة تماماً فى أواخر القرن ١٩ م - (انظر كتاب «نهر النيل» للدكتور محمد عوض محمد - المقدمة التاريخية) .

(٢) المنوفى : الفيض المديد ص ٤ - ٥٠ (مخطوط) ، السيوطى : كوكب الروضة ص ٥٤ - ٥٧ (مخطوط) ، (أورد السيوطى خريطة لنهر النيل من منبعه إلى مصبه وفقاً لتصوير جغرافيين ذلك العصر) ، مقدمة ابن خلدون ص ٤٥ - ٤٦ ، القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٣ ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٣) السيوطى الكلام على النيل ص ٢٦ (مخطوط) .

Ency. of Islam : Art Al Nil.
النيل والمجتمع المصرى

(٤)

وتذكر الأساطير العربية أن نهر النيل كان يتبدد على وجه الأرض فلما تقدم تقراوش الجبار بن مصر ايم الأول بن كاييل بن دواييل بن آدم عليه السلام إلى أرض مصر ومعه عدة من بني عرباب واستوطنوها وبنوا مدينة أمسوس ، حفر قومه النيل حتى أجروا ماءه إليهم ، وكان يتفرق على سطح الأرض فوجه الملك تقراوش المهندسين فهندسوه وساقوا منه أنهاراً كثيرة إلى مدنهم التي بنوها ، ولما خربت مصر بالطوفان عدل بجانب النهر تعديلاً ثانياً^(١) .

وتقول أسطورة أخرى أن الوليد بن دومع العليقي (أحد أبطال الأساطير العربية التي نسجت حول تاريخ مصر الفرعونية) خرج في جيش كثيف ينتقل في البلاد ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها فلما وصل إلى الشام علم بثروة مصر وأن أمرها قد صار إلى النساء بعد هلاك ملوكها فوجه غلاماً يقال له « عون » إلى مصر وسار إليها بعده واستباح أهلها ، وأخذ الأموال وقتل جماعة من كهنتها ، ولما استولى عليها « سنج له أن يخرج ليقف على منابع النيل ليعرف ما بحافتيه من الأمم » وقضى ثلاث سنوات في الإعداد لهذه الحملة الضخمة وخرج في جيش عظيم وسار يريد أعالي النيل فلم يمر بأمة إلا أبادها ومر على أمم السودان وجاوزهم ، ومر على أرض الذهب فوجد بها قضباناً نابذة من الذهب ، وواصل سيره حتى وصل إلى البطيحة العظيمة التي ينصب فيها ماء النيل من الأنهار التي تخرج من جبال القمر ، وتجاوز في مسيره هيكل الشمس سائراً حتى جبل القمر حيث شاهد النيل يخرج من تحته في نهيرات صغيرة تتجمع لتصب في بحيرتين ، ثم يخرج منهما في نهريْن حتى ينتهي إلى بحيرة أخرى ، وإذا خرج من خط الاستواء أمدته عين تخرج من ناحية نهر مهران بالهند . وبعد ذلك كر الوليد هذا راجعاً إلى مصر حيث قتله أحد الأسود^(٢) وتحكى أسطورة أخرى أن « هرمس الأول » الذي ينسب إليه بناء الأهرام وفقاً لرواية الأساطير العربية قد حملته الشياطين إلى جبل القمر فرأى كيفية خروج النيل فبنى في سفح ذلك الجبل قصراً به خمسة وثمانون تمثالا من النحاس تتحكم في مخارج مياه النيل^(٣) .

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) المرجع السابق نفس الجزء ص ٥١ - ٥٢ ، المنوفى الفيض الجديد ص ٩ (مخطوط) .

(٣) ابن الوردي : خريدة العجائب ص ١٥٤ - ١٥٥ .

وثمة أسطورة تقول إن رجلاً يقال له «حائد» (أو حامد) بن أبي شالوم بن العيص ابن إسحق بن إبراهيم عليه السلام خرج من موطنه الأصلي وسار في البلاد حتى وصل إلى مصر ، فلما رأى نهر النيل سأل الله ألا يفارق ساحلها حتى يبلغ منتهاه ، فسار ثلاثين سنة في العمران ، ومثلها في الخراب ، حتى انتهى إلى بحر أخضر فرأى النيل ينشق مقبلاً ، فاستمر في مسيرته ، حتى قابل رجلاً من أبناء عمومته يسمى «عمران» ثم تذكر الأسطورة أن حواراً تم بينهما يفهم منه أن عمراناً هذا دل «حائداً» على طريق منابع النيل وأوصاه أن يدفنه بعد عودته . . . وتمضي سطور الأسطورة لتحكى كيف سار حائد هذا منتقلاً ما بين أرض الحديد ، إلى أرض النحاس ، ومنها إلى أرض الفضة حتى ينتهي إلى أرض الذهب حيث يرى أربعة أنهار ، ثلاثة منها تفيض ، والرابع يفيض على سطح الأرض وهو نهر النيل ، وتحكى الأسطورة كيف أن حائداً هذا أخذ رزقه من الجنة (التي شاهد النيل يخرج منها) ثم عاد أدراجه ليجد أن عمراناً مات فدفنه حسب وصيته ، ثم عاد إلى مصر فأخبر أهلها بذلك^(١) .

وهكذا فإن فكرة المعاصرين عن منابع نهر النيل لم تعتمد على مشاهدات حقيقية ، وإنما اعتمدت على النقل من الأقدمين ، ثم على الروايات الأسطورية التي هي في حقيقتها إنتاج الخيال بسبب العجز عن معرفة الحقيقة عن أعالي النيل وقد أدرك هذا بعض كتاب عصر سلاطين المماليك ومن بينهم ابن فضل الله العمري إذ يقول « . . إن القصص التي تتحدث عن محاولات ملوك الأقدمين الكشف عن أصل النيل مبنية على النظريات العلمية وليس على المشاهدة . . » كما يقرر أن الأقوال في أول مجرى النيل كثيرة « . . والشائع أن أحداً ما وقف على أوله بالمشاهدة . . . وجعل كل واحد منهم سبباً لعدم الوقوف على أوله . . »^(٢) وهو في هذا يحتكم إلى المنطق ، ويقرب من الحقائق في موضوعية دون أن يجرفه الخيال وبريق الأساطير .

وعن محاولات كشف منابع النيل بعد الإسلام أورد المؤرخون قصة مؤداها أن بعض الخلفاء أرسل عدة رجال لكشف منابع النيل ، ولما وصلت المجموعة إلى جبل القمر

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤٣ - ٣٤٦ ، المنوفي : الفيض المديد ص ١٠ - ١١ (مخطوط) .

(٢) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ج ١ ص ٦٨ - ٧١ .

صعد أولهم إلى أعلاه حيث ضحك وصفق ثم مضى ولم يعد ، وصعد رجل آخر ففعله مثله ، ثم صعد ثالث وربطه رفاقه بحبل جعلوه معهم حتى لا يمضى كسابقه فخر ومات من ساعته^(١) وتذكر قصة أخرى أن الملك الصالح نجم الدين أيوب أراد أن يعمر أصل النيل فأمر بشراء عبيد صغار زنوج أو ما شابههم ويسلموا لصيادي السمك والتجار ليتعلموا صنعة البحر وصيد السمك كي يكون غذاءهم ، فإذا مهرؤا في ذلك يصنع مراكب صغار ليركبوها ويأتوه بخبر النيل ولكن المحاولة باءت بالفشل^(٢) وممّا يكن نصيب هاتين القصتين من الصحة فإنهما تعكسان مدى الاهتمام بمنابع النيل .

وإذا كان نهر النيل قد نال حظاً موفوراً بين مواضيع الأساطير العربية كما يتضح من السطور السابقة ، فإنه لقي نفس الاهتمام من القصص الديني ، وثمة محاولة دائمة وثابتة من جانب المؤرخين والجغرافيين في عصر سلاطين المماليك للربط بين نهر النيل والقصص الديني سواء كان ذلك القصص واردة في القرآن الكريم أو في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وما أثر عن الصحابة والسلف الصالح ومفسري القرآن الكريم ، فقد قيل أنه لم يرد في القرآن الكريم اسم نهر سوى نهر النيل وذلك في قوله سبحانه وتعالى « . . وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم » « . . أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي . . . » ومفسر بعض المفسرين هذه الآية الكريمة بأن أرض مصر في أيام فرعون كانت عامرة بالقناطر والجسور بتدبير وتقدير حتى أن الماء يجري تحت منازلهم وأقيبتها فيحبسونه كيف يشاء ويطلقونه حيث شاءوا . كذلك ورد ذكر نهر النيل في قوله تعالى « فأخرجناه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم » وتفسير هذه الآية — في رأى هؤلاء المفسرين أن الجنان كانت بأرض مصر بحافتي النيل من أوله إلى آخره في الجانبين جميعاً ما بين أسوان إلى رشيد^(٣) ، وقد فسر البعض قوله تعالى إخباراً عن فرعون الذي حدد لموسى عليه السلام موعداً للاجتماع « . . قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشرناس ضحى . . »

(١) المحلى : مبدأ النيل على التحرير ص ٢ - ٣ (مخطوط) .

(٢) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٦٤ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤٠ - ٣٤١ ، الكلام على النيل : ص ١٣ / ١٩ (مخطوط)

كوكب الروضة ص ٤٩ (مخطوط) .

بأنه يعنى الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج إذ أن العادة جرت منذ القدم على أن اجتماع الناس لتخليق المقياس يكون في هذا الوقت^(١) .

كما أن المؤلفات المعاصرة امتلأت بأحاديث كثيرة منسوبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام تنسب النيل إلى أنهار الجنة ، وتضفى عليه صفة القدسية ، وتخلع عليه صفة الإيمان^(٢) وطبيعى أن النهر الذى كان إلهاً في عصور الوثنية (حاجى) لا يمكن أن يحتفظ بألوهيته في ظل الإسلام دين التوحيد ، ولكن أهمية النهر في حياة البلاد ووجودها جعلت النهر يحتفظ بصفات القدسية فهو من أنهار الجنة وسيد الأنهار وهو النهر المؤمن في الأحاديث التى نسبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح . ونسوق مثالا للأحاديث الشريفة عن نهر النيل ما جاء في البخارى عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله في حديث المعراج «... ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبقتها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قلت : ما هذا يا جبريل ، فقال : هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ، ونهران باطنان . قلت ما هذا يا جبريل ، قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فهما النيل والفرات . . . »^(٣) ونقل المقرئى فى خططه ما جاء فى كتاب غريب الحديث لابن قتيبة وفى حديثه عليه الصلاة والسلام « نهران مؤمنان ، ونهران كافران . أما المؤمنان فالنيل والفرات ، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ » وتفسير ذلك أن النيل والفرات مؤمنان لأنهما يفيضان على الأرض ويسقيان الحرت والشجر بلا تعب فى ذلك ولا مؤونة ، وجعل دجلة وبلغ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا يسقيان إلا شيئاً قليلاً وذلك القليل يتعب ومؤونة فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين^(٤) . وورد فى الحديث أيضاً أن

(١) الزويرى نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٤ ، المقرئى : الخطط ج ١ ص ٦٠ الكتبى : مباحج الفكر

ج ١ / ق ٢ ورقة ٨٦ .

(٢) الحجازى : نيل الرائد ص ٨ (مخطوط) ، السيوطى : الكلام على النيل ص ١٣ - ١٩ (مخطوط)

المحل : مبدأ النيل ص ٧ - ٩ (مخطوط) .

(٣) المنوفى : الفيض المديد ص ٩ ، المقرئى : الخطط ج ١ ص ٥٠ ، اللقى : مباحج الفكر

ج ١ / ق ٢ ورقة ٨٤ ، الزويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٣ .

(٤) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٩ - ٥٠ .

جبريل عليه السلام نزل بالنيل والفرات على جناحيه « فكان النيل على جناحه الأيسر والفرات على جناحه الأيمن ، وقال بعض الفضلاء أن هذا يدل على أن ماء النيل أخف من ماء الفرات لان الشيء الثقيل من عادته يحمل على الجانب الأيمن والخفيف على الجانب الأيسر ، وكون جبريل حمل النيل على جناحه الأيسر دليل خفته ^(١) » .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كل الأحاديث التي نسبت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد ولكن ذلك يعكس أمراً هاماً وهو مكانة نهر النيل في نفوس المعاصرين وهي المكانة التي انعكست في كتابات مؤلفي عصر السلاطين المماليك الذين حاولوا إضفاء صفة القداسة على النهر الخالد فهو يجرى بوحى من الله ويعود بوحى منه سبحانه وتعالى ، وهو سيد الأنهار سخر الله له كل الأنهار والعيون لتمده بمائها وقت زيادته ، كذلك فهو النهر المؤمن وهو نهر الحمر لدى أهل الجنة ^(٢) .

وتروى إحدى القصص الدينية أنه لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام مثل له الدنيا مشرقها ومغربها ، وسهولها وجبالها ، وأنهارها وبحارها ، وبناءها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ومن يملكها من الملوك ، فلما رأى مصر رأى أرضاً سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة وتمزج به الرحمة فدعا للنيل بالبركة ودعا في أرض مصر بالرحمة ، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات ^(٣) كما تحكى قصة أخرى أن النيل هبط في زمن فرعون ، وطلب الناس منه أن يجريه لهم ولكنه ردهم بحجة عدم رضائه عنهم وغضبه عليهم ، ولما هددوه باتخاذ إله غيره خر ساجداً لله تعالى وألصق خده بالأرض وأخذ يتذلل إلى الله سبحانه وتعالى أن يجري النيل فأجراه الله كما لم يجر من قبل ، فخرج فرعون إلى قومه وقال لهم إني أجريت لكم النيل فخروا له ساجدين ، وجاءه جبريل عليه السلام وسأله عن جزاء عبد كان عنده واثمنه ولكن العبد خان الأمانة فقال فرعون إن جزاء هذا العبد أن يغرق في بحر القلزم ، وحصل منه جبريل على كتاب بذلك ، فلما كان يوم البحر (اليوم الذي غرق فيه فرعون وجنوده في مياه البحر

(١) ابن الأثير : معالم القرية ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٤٩ ، السيوطي : كوكب الروضة ص ٥٠ - ٥١ (مخطوط)
ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٠٧ . الحجازي : نيل الرائد ص ٨ - ٩ ، المنوفي : الفيض المديد ص ١٢ (مخطوط) .

(٣) السيوطي : كوكب الروضة ص ٥٠ - ٥١ (مخطوط) .

حين خرجوا يطاردون موسى وقومه) جاءه جبريل بالكتاب وقال لفرعون خذ هذا ما حكمت به على نفسك»^(١).

وكان الفيضان وأسبابه مرتعا لخيالات مؤرخي عصر المماليك وجغرافيه ومجالا لتخمينهم. واعتمدوا في هذا المقام أيضاً على ما نقلوه من كتابات القدماء؛ ولكن بعضهم اقترب من السبب الحقيقي للفيضان أو كاد فقل أن سبب الزيادة هو نزول الأمطار فوق جبال الحبشة صيفاً « فيأتي مددها إلى مصر » ، ولكنهم تصوروا أن رياح الشمال تهب فترتفع مياه البحر المتوسط لتحجز مياه نهر النيل حتى يفيض ويروى البلاد ثم تهب رياح الجنوب لتجعل مياه النيل تصب في البحر المتوسط^(٢) كما ذكر البعض أن زيادة نهر النيل زمن الفيضان من عيون على شاطئيه « رآها من سافر ولحق بأعاليه »^(٣) كما أن كتابات ذلك العصر حاولت إكساب نهر النيل طابع القدسية في هذا الصدد أيضاً ، فقل أن الله سبحانه وتعالى يأمر كل الأنهار والعيون أن تمد النيل بمياهها وقت زيادته ، فإذا اكتفى الناس برى أراضيتهم وزراعتهم أمر الله نهر النيل أن يعود كما كان^(٤) وربما نتج هذا التصور في أذهان كتاب عصر المماليك من حقيقة أن نهر النيل يزيد صيفاً أى في الوقت الذي تنقص فيه مياه سائر الأنهار المعلومة لديهم .

ورغم تخميناتهم ونظرياتهم المشوشة عن منابع النيل وأسباب الفيضان وما شابهها من أسطورية وخيال فإن وصفهم لمجرى النيل — من حدود مصر الجنوبية عند الجنادل حتى مصبه في البحر المتوسط — يستقيم ويتضح في كتاباتهم ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أنهم شاهدوا هذه المنطقة بأنفسهم وركبوا النيل من مكان إلى آخر ما بين أسوان ودمياط ورشيد ومن ثم جاءت كتاباتهم دقيقة اعتماداً على المشاهدة وليس النقل . كما عدد كتاب عصر سلاطين المماليك مزايا النهر ومحاسنه التي لمسوها بأنفسهم فهو النهر الوحيد المعلوم لديهم الذي يجري من الجنوب إلى الشمال ، وهو أطول أنهار

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) المقرئزي : الخطط ج١ ص ٥٨ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٦٤ - ١٦٥ ، السيوطي

الكلام على النيل ص ٢٤ ، حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٤٨ .

(٣) الكتبي : مباحج الفكر ج١/ق٢ ص ٨٥ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٦٥ ،

المقرئزي : الخطط ج١ ص ٥٨ .

(٤) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٦٩ ، المقرئزي : الخطط ج١ ص ٤٩ - ٥٠ .

الدنيا^(١) كذلك تعددت كتاباتهم في وصف ما يزرع على النيل وذكروا أنه لا يوجد نهر في الدنيا يزرع عليه ما يزرع على نهر النيل ، كما أن ما يعتبر عيوباً ونقائص في الأنهار الأخرى اعتبره هؤلاء محاسن ومزايا في نهر النيل^(٢) وقد كتب كثيرون عن فضائل مياه نهر النيل التي وصفت بأنها أخف مياه الدنيا وأحلاها وأرواها وأمرها وأعمها نفعاً وأكثرها خراجاً^(٣) وذكر المقرئ في خططه أن ماء النيل يكون أكثر صلاحية للشرب في طوبة عند تكامل البرد ، وأورد ما يكون عند الفيضان وعند وقوف حركته ، فعند ذلك ينبغي أن يطبخ ويبالغ في تصفيته بقلوب نوى المشمش وسائر ما يقطع لزوجته ، وقد عرف المصريون بالتجربة أن ماء طوبة أجود المياه حتى صار كثير منهم يخزنه في القوارير الزجاج والصيني ويشربه السنة كلها ، ويزعم أنه لا يتغير^(٤) وقال ابن أياس أن ماء النيل المبارك من أجل منافع مصر لسرعة هضمه للأكل ونقل عن بعض الحكماء قولهم « لولا ماء الليمون على أهل مصر لوخموا من حلاوة ماء النيل »^(٥) كما ذكر المقرئ نقلاً عن ابن سينا أن مياه النيل تجمع فيها كل صفات « المياه الفاضلة »^(٦) .

أما فيما يتعلق بالأسماك والحيوانات المائية التي تواجدت في نهر النيل فإن كتاب عصر سلاطين المماليك أسهبوا في الحديث عنها ، واعتبروا بعضها من العجائب ، ومن هذه الحيوانات المائية التمساح فذكروا أنه لا يوجد إلا بنهر النيل ونهر مهران فقط وكان ذلك دليلاً لديهم على أن النهرين يخرجان من منبع واحد ، كما تحدثوا في كتاباتهم عن السقنقور (وهو - وفقاً لأوصافه التي أوردوها - حيوان مائي يتواجد في منطقة أسوان والنوبة شبيه بالتمساح وهو من نسله إذا وضعه في الماء فإذا اتجه إلى البر صار سقنقورا ، وإن اتجه إلى مياه النهر صار تمساحاً) . ومن بين أسماك النيل التي ذكرها كتاب عصر

(١) ابن الوردي : خريدة العجائب ص ١٥٤ - ١٥٥ ، الحجازي : نيل الرائد ص ١٢ - ١٣ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٥٥ أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٤٤ - ٤٦ ، المنوفي : الفيض المديد ص ١٩ - ٢٤ ، ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٢٥ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) السيوطي : كوكب الروضة ص ٦٦ ، حسن المحاضرة ج ٢ - ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

(٣) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٤٥ - ٤٦ ، المنوفي : الفيض المديد : ص ١٩ - ٢٤ .

(٤) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٦٤ .

(٥) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٥ (ط . بولاق) .

(٦) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٦١ - ٦٢ .

المماليك سمكة اسمها «الرعاة» تصيب من يلمسها بالرعشة ، ولذا يعمد الصيادون إلى إخراجها من شباكهم فور اصطياها ، كما وصفوا فرس النهر ، وزعموا أن سمكة تعيش في نهر النيل وهى شبيهة بإنسان ذى لحية طويلة وأطلقوا على تلك السمكة المزعومة اسم «شيخ البحر» وهى سمكة مشثومة إذا ظهرت فى مكان أعقب ظهورها القحط والموت والفتن « . . . وقيل أن دمياط ما تنكب حتى يظهر عندها . . . »^(١) .

مما سبق يتضح لنا أن المؤرخين والجغرافيين فى عصر سلاطين المماليك أدركوا أهمية النهر فى حياة البلاد وانعكس ذلك الإدراك فيما بذلوه من عناية فائقة به على أساس أنه صاحب الفضل فى وجود المجتمع المصرى بشتى نواحي حياته ، وكما اهتم مؤرخو ذلك العصر ومؤلفوه بالنيل فإن النهر الخالد كان موضوعاً مفضلاً يلهب خيال الشعراء والأدباء الذين وصفوا النهر ومجراه والمزارع والحدائق على ضفتيه كما تحدثوا فى أشعارهم عن السفن التى تجرى فوق صفحته ، وحفلت أشعارهم وكتاباتهم النثرية بالكلام عن الفيضان واحتفالات الوفاء وكسر الخليج ، ولم يقصر شعراء وأدباء مصر فى عصر سلاطين المماليك فى إبداء شعورهم نحو النيل والتعبير فى كتاباتهم - شعراً ونثراً - عن مشاعر عامة المصريين نحوه وكيف لا وهو مصدر اليأس والبركة ، ومنبع الخير والرزق ، وعليه فى جملة الأمر مدار الحياة وقوام المعيشة^(٢) .

وسنكتفى فى هذا المقام بأن نورد بعض الأمثلة والنماذج الشعرية دليلاً على احتفال الشعراء بالنهر العظيم ، وكيف أنهم كانوا يخاطبونه مخاطبة إنسان يعايشهم فهو الحبيب الذى يشاقون إلى لقياءه ، ويفرحون بمجيئه ، ويعاتبونه حين يتأخر عنهم ، ثم هو مجال متنزهاتهم وأفراحهم وإذا قصر عن الوفاء قلقوا وحزنوا وخشوا نزواته ، وتنعكس كل هذه المشاعر - بطبيعة الحال - فى أشعارهم .

قال أحد شعراء ذلك العصر يصف نهر النيل :

واها نيل مصرى أى عجيبة بكر بمثل حديثها لا يسمع
يلقى الثرى فى العام وهو مسلم حتى إذا ما مل عاد يودع

(١) السيوطى كوكب الروضة ص ٧١ - ٧٤ (مخطوط) ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٩ - ٧٤ ،

المنوفى : الفيض المديد ص ١٩ - ٢٤ (مخطوط) .

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٦٣ .

مستقبل مثل الهلال فدهره أبداً يزيد كما يريد ويرجع^(١)

يتحدث الشاعر في الأبيات السابقة عن النهر وكأنه إنسان عاقل يأتي ليسلم على الأرض في ميعاد الفيضان ، ويمكث حتى ينتابه الملل فينصرف مودعاً . وقال شاعر آخر متعجباً من أحوال النهر :

كأن النيل ذو فهم ولب لما يبدو لعين الناس منه
فيأتي حين حاجتهم إليه ويمضي حين يستغنون عنه^(٢)

وقال شاعر ثالث في تدرج زيادة النيل وعظم منفعته :

أرى أبداً كثيراً من قليل وبدراً في الحقيقة من هلال
فلا تعجب فكل خليج ماء بمصر مسيب بخليج مال
زيادة إصبع في كل يوم زيادة أذرع في حسن حال^(٣)

ففي هذه الأبيات الثلاثة يوضح الشاعر قيمة الفيضان وأثره على الحياة الاقتصادية للبلاد ، وكيف أنها تسبب زيادة في المال وتحسن الأحوال . وقال بعض الشعراء يصف إحداق النخيل والأشجار والمزارع بمجرى نهر النيل :

ما الخلد إلا مصر في أيلول يحل بالغدو والأصيل
بالبر من نسيمها العليل كم سرورة محفوفة بالنيل
كأنها مائدة البخيل^(٤)

واستهوى منظر الغروب على شاطئ النيل أحد الشعراء فأنشد يقول :

انظر إلى النيل والشمس غاربة وانظر ما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعاعاً منها يخلفها كأنما احترقت بالماء في الغرق^(٥)

(١) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٦٢ .

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ، ابن أبياس : بدائع الزهور : ج ٤ ص ١١٣ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦١ .

(٤) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٧٠ .

(٥) السيوطي كوكب الروضة ص ٣٦ .

وقال آخر :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هي الجنة لمن يتبصر
فأولادها الولدان من نسل آدم وروضها الفردوس والنيل كوثر^(١)

وعن فيضان النيل والوفاء وكسر سد الخليج تكثر الأشعار التي حرص كثير من مؤرخي عصر المماليك على أن يوردوها في ثنايا ما يكتبون . وكتب أحد الشعراء يتعجب من نهر النيل الذي لم يتخلف عن الوفاء في زمن انعدم فيه الوفاء وتوارت القيم الأخلاقية الشريفة :

أتطلب من زمانك ذا وفاء وتأمل ذاك جهلا من بنيه
لقد عدم الوفاء به وأنى لأعجب من وفاء النيل فيه^(٢)

وفي عيد كسر الخليج كتب أحد الشعراء :

سد الخليج بكسره جبر الورى طرأ فكل قد غدا مسروراً
الماء سلطان فكيف تواترت عنه البشائر إذ غدا مكسوراً^(٣)

وحدث سنة ٦٠٤ هـ أنه كسر سد الخليج ليلاً وبدون احتفال فقال بعض الشعراء :

منذ للسلطان قالوا للورى بالكسر جبر
كسر السفر بلبل فغدا للناس كسر^(٤)

وحين يتأخر النهر عن الوفاء كان الناس يفرعون ، وبطبيعة الحال يعبر الشعراء عن هذا الفرع فيما يكتبون من أشعار يعاتبون فيها النهر ويربطون أحياناً بين قصور النهر ، وفساد الحكومة القائمة من ذلك ما قاله أحد الشعراء يهجو المظفر بيبرس الجاشنكير :

لما تولى الخير عن أمم لم يحمدوا أمرهم فيها ولا شكروا

وكيف تمشي به الأحوال في زمن لا النيل وافي ولا وافاهم مطر^(٥)

(١) المقرئى : السلوك ج ١/ق ٢ ص ١٦٩ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ج ٢ ، ص ٣٤٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٠ .

وقد تبدو روح الفكاهة من خلال ما يكتبه الشاعر عندما يتأخر الفيضان ومثال ذلك :

إن عجل النيروز قبل الوفا عجل للعالم صفع القفا
فقد كفى من دمعهم ما جرى وما جرى من نيلهم ما كفى^(١)
وإذا زادت مياه النهر عن الحد المطلوب حتى تغمر المياه الأراضي الزراعية ويفوت
أوان الزرع يضطرب الناس ويتملكهم القلق خوف الغلاء والمجاعة ويعكس الشاعر
ذلك في قوله مخاطباً النيل كأنه إنسان يفهمه :

أبحر النيل لا تشره ولا تأت بما نكره
فقد وفيت بالحسنى ولكن زدت في كره
ولا تترك قفا الحباز يوماً يأكل الدرة
كم من خازن للقمح أمسى يظهر العذرة
ألم تعلم بأنك إن نزلت تركته عرة
فشهر دمعته حتى تراه في الورى نهره
وسر عن مصر في خير فقد طولت في العشرة^(٢)

وقد أورد كتاب ذلك العصر كثيراً من الأشعار التي قيلت في النهر العظيم ووصف
مجره والمزارع والأشجار والنخيل التي تحف بشاطئيه ، والأشعار التي قيلت في الفيضان
واحتفالات الوفاء وكسر الخليج ، وما نظمه الشعراء حول قصور النيل عن الوفاء . ورغم
ركاكة معظم هذه الأشعار إلا أن المجال ليس مجالاً للنقد الأدبي - الذي لاندعى لأنفسنا
مكانة فيه - بقدر ما هو مجال لإظهار ما كتبه الشعراء المصريون في عصر سلاطين
المماليك معبرين بذلك عن مشاعر الناس تجاه النيل ومكانته في نفوس أهل ذلك الزمان
ويتضح من النماذج السابقة - وعشرات غيرها تغص بها مؤلفات عصر سلاطين المماليك -
أنهم وصفوه بأنه إنسان لبيب يفهم ويعي ، ووصف أيضاً بأنه الحبيب الذي يشتاقون
للقياء ويفرحون بمقدمه ، بل تخيل بعضهم حواراً بين النيل والبحر المالح يفاخر فيه

(١) السيوطي كوكب الروضة ص ٣٦ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة : ج ٢ ص ٣٥٩ .

كل منهما الآخر. كذلك تحدث الشعراء عن نهر النيل وجزيرة الروضة والمقياس وأماكن الفرجة والمتنزهات التي يمكن أن تتاح لمن يركب النيل كما نظموا الأشعار عن المناظر الخلابة التي شاهدها مقترنة بالنيل^(١) وكانت مسرحاً لخيالهم ومراحاً لانفعالاتهم .

وكان من بين دواوين الدولة في عصر سلاطين المماليك « ديوان الأنشاء » وعنه كانت تصدر الرسائل السلطانية « الرسمية » والمكاتبات العامة ، وكانت الدولة تستخدم في هذا الديوان أهل العلم والأدب وكبار أولى المعرفة وكانت رسائل البشارة بوفاء النيل من بين الرسائل الرسمية التي تصدر عن هذا الديوان . وفي هذه البشارة يعلنون الناس بوفاء النيل حتى تطمئن القلوب وترتاح النفوس ، وكانت هذه البشارة من خصائص الديار المصرية « لا يشاركها فيها غيرها من الممالك » . وقد حرص حكام مصر من قديم الزمان أن يكتبوا البشارة بوفاء النيل إلى ولاية الأعمال « . . . اهتماماً بشأن النيل ، وإظهاراً للسرور بوفائه الذي يترتب عليه الخصب الذي يؤدي إلى العمارة وقوام المملكة . . . »^(٢) .

وربما يكون من المفيد في هذا المقام أن نورد نموذجاً لهذه البشارات وهي البشارة التي كتبها الأديب « تقي الدين أبو بكر بن حجة » عن السلطان المؤيد شيخ سنة ٨١٩ هـ ، ومنها « . . . ونبدي لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذي عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة ، وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عادة ، وخلق أصابعه ليزول الإبهام ، فأعلن المسلمون بالشهادة وكسر بمسرى ، فأمسى كل قلب بهذا الكسر مجبوراً ، وأتبعناه بنوروز ، وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدي مكسوراً ، مدققاً السودان فالراية البيضاء من قلع عليه ، وقبل ثغور الإسلام فأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف غصونها إليه ، وتسبب خريبه في الصعيد بالقصب ، ومن سبائك الذهبية إلى جزيرة الذهب ف ضرب « الناصرية » واتصل « بأم دينار » ، وقلنا لولا أنه صبغ بقوة لما جاء وعليه ذلك الاحمرار وأطال الله عمر زيادته فتردد إلى الآثار وعمته البركة فأجرى سواقى ملكه إلى أن غدت جنة تجري من تحتها الأنهار وحضن مشتهى الروضة في صدره وحنا عليها حنوا المرضعات على الفطيم .

وأرشفنا على ظمأ زلالاً ألد من المدامة للنديم

(١) المرجع السابق ص ١٢ - ١٧ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٨ - ٣٣٠ .

وراق مديد بحرہ لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافتہ الحمريه فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب فأرضع في أحشاء الأرض جنين النبت ، وأحياله أمهات العصف والأب وصافحته كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية ، ولبس الورد تشریفه ، وقال أرجو أن تكون شوكتي قوية ، ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة الندى ، وهامت به مخدرات الأشجار فأرخت صفائر فروعها عليه من شدة الهوى واستوفى النبات ما كان له في ذمة الرى من الديون . . « وتستطرد سطور البشارة على هذا النحو إلى » . . . وكلما زاد الله في حسناته فلا فقير سد إلا حصل له من فيض نعماه مفترج ، ولا بيت خليج إلا عاش به ودبت فيه الروح ، ولكنه احمرت عيناه على الناس بزيادة وترفع ، فقال له المقياس : عندى قبالة كل عين إصبع ، ونشر أعلام قلوعه وحمل وله على ذى الجزيرة زمجرة ، ورام أن يهجم على غير بلاده ، فبادر إليه عزم المؤيدى وكسره . . » ^(١) .

من هذا النموذج للبشارات يتضح لنا مدى شغف منشئ هذه البشارات بالنهر الخالد وكبير محبتهم وإعزازهم إياه من ناحية ، كما يتضح مدى التزامهم بأصول وقواعد الكتابة الفنية المرعية آنذاك من ناحية أخرى . ولكن أمر البشارات لم يكن مقصوراً على « الرسميات » وعلى ديوان الإنشاء فقط ، بل كان بعض الأدباء خارج الديوان يكتبونها في مناسبة وفاء النيل تقليداً لما يكتبون في الديوان أو معارضة لإحدى رسائل البشارات التي سبقت كتابتها في مناسبة الوفاء ، ومن ثم كانت البشارات بوفاء النيل غرضاً هاماً من أغراض النثر الفنى في عصر سلاطين المماليك . ولم تكن البشارات وحدها هي اللون الوحيد التي تناولت نهر النيل وفيضانه ، وما يتصل به من أمور ، فقد كتبت في ذلك الرسائل الإخوانية والمقامات والمفاخرات والألغاز ، وتحدث البعض في مراسلاتهم الإخوانية عن النيل وفيضانه أو طغيانه أو فوائده لمصر ^(٢) .

وفي السطور التالية بعض نماذج أخرى لقطع نثرية تتحدث عن النيل كتبها بعض أدباء ذلك العصر ، فقد قال بعضهم يصف النيل إبان الفيضان « . . . وأما النيل فقد امتدت أصابعه ، وتكسرت بالموج أضالعه ولا يعرف الآن قاطع طريق سواه ولا من

(١) السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٧١ - ٣٧٣ .

(٢) محمود رزق سليم : النيل في عصر المماليك ص ٦٩ - ٧١ ، ص ٨٤ .

يرجى ويخاف إلا إياه . . . »^(١) .

وقال أديب آخر يصف النيل إبان الفيضان « . . . وأما النيل إذا زاد نيله ، وتراكم سيله ، ولازم المعشوق ملازمة العاشق وقطع الطريق بكثرة مياهه ، وكاد يصل ارتفاعها إلى الطارق ، شبك بالخمسة أصابعه ، وأغار على ما هناك من الضياع الثلاث والعدوية رابعة ، وتوجه إلى مصر فعم جهاتها وما نخصص ، وأقام بدار النحاس ورصص ، وعقدت خيامه بأذيال الجبال الطنب ، وغسل بمائه جاره الجنب ، وأذاق الشجر من محمر مائه الموت الأحمر . . . »^(٢) .

ولعل من أجمل الأوصاف التي وصفت بها مصر ما ذكره بعض أدباء ذلك العصر من أن « . . . مصر ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر في أشهر أبيب ومصرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء ، وضياها على روابي وتلال مثل الكواكب قد أحيطت بالمياه من كل جانب فلا سبيل إلى قرية من قراها إلا في الزوارق . وأما المسكة السوداء فإنه في شهر بابه وهاتور وكيهك ينكشف الماء من الأرض فتصير سوداء وفي هذه الأشهر تقع الزراعات . وأما الزمردة الخضراء فإنه في شهر طوبة وأمشير وبرمهاث يكثر نبات الأرض وربيعها فتصير خضراء كأمرها زمردة ، وأما السبيكة الحمراء فإنه في أشهر برمودة وبشنس وبثونة يتورد العشب ويبلغ الزرع الحصاد فيكون كالسبيكة من الذهب منظراً ومنفعة . . »^(٣) ويعكس هذا الوصف الدور الرئيسي الذي يلعبه النهر في تشكيل الحبات المصرية حتى في مظهرها الخارجي :

وهكذا ومن خلال النماذج الواردة في السطور السابقة ، ومن خلال عشرات النماذج التي تغص بها الكتب والمؤلفات المعاصرة نستطيع أن نحس حباً عظيماً ومكانة سامية لنيلنا العظيم في نفوس أدباء وشعراء ذلك العصر فقد كان موضوعاً رئيسياً لكتاباتهم ، الشعرية والنثرية ، ولا غرو فهو قوام الحياة في مصر ، ومحور النشاط الإنساني على الأرض المصرية فإذا أوفى سارت الأمور سيرتها الطبيعية ، وإذا قصر سادت مظاهر

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ٢١٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٠ ، المقرئ : الخطط ج ١ ص ٢٥ .

الفوضى والفرع ، وبالطبع ينعكس ذلك فيما يكتبه الأدباء والشعراء .

تنتقل بعد ذلك إلى ما كتبه الرحالة — الشرقيون منهم والغربيون — عن النهر الخالد في تلك الأيام ، والواقع أن مصر كانت محط أنظار كثيرين من الرحالة من شتى الأنحاء في عصر سلاطين المماليك ذلك أن العالم الإسلامي في مشرقه ومغربيه تعرض لضربات قاصمة نزلت على أطرافه في العراق والشام بالشرق والأندلس بالمغرب بينما كانت مصر تعيش في عزة ومنعة نسبية في ذلك العصر جعلت القوى الكبرى تحسب حسابها وتخطب ودها ، ونتج عن ذلك نوع من الاستقرار أدى لنشاط علمي موفور علاوة على النشاط الاقتصادي الضخم الذي يسره موقع مصر الجغرافي كوسيط بين تجارة الهند وتجارة أوروبا ، ومن ثم كان طبيعياً أن تكون مصر محط أنظار الرحالة من شتى الأنحاء ومزاراً يحج إليه طلاب العلم وطلاب التجارة على السواء وسنكتفي هنا بالحديث عن اثنين من الرحالة الشرقيين ، ومثلهما من الرحالة الغربيين كمثال لكتابات هؤلاء وأولئك .

ويعتبر الرحالة ابن بطوطة أهم الرحالة المسلمين الذين زاروا مصر في ذلك العصر، وقد ولد بطنجة وخرج منها في رحلات ثلاث واسعة النطاق جاب فيها كثيراً من البلاد واستغرقت الرحلة أربعة وعشرين عاماً حج فيها حجته الأولى وزار مصر وبلاد المغرب والشام وفلسطين ثم زار مصر مرة أخرى في طريق عودته للوطن بعد أن وصل في ترحاله إلى الهند وبلاد الشرق الأقصى ، وقد ألف كتاباً عن رحلته اسمها « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار »^(١) ضمنه مشاهداته في رحلاته . وقد وصف كثيراً من الأشياء التي شاهدها في مصر ، وقال عن مصر والنيل « . . . ولها خصوصية النيل التي جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها . . »^(٢) كما أورد بعض أبيات الشعر التي تمدح النيل ومصر ، وذكر مزايا النيل ومحاسنه وإن لم يخرج عن إطار الكتابات المعاصرة من حيث إيراد بعض آيات القرآن الكريم المتعلقة بالنهر والأحاديث التي تضمني على النهر صفة القدسية ، كما ذكر أن نهر النيل هو أحد الأنهار الخمسة الكبار في الدنيا وهي النيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون على حد زعمهم^(٣) .

(١) انظر رحلة ابن بطوطة (ط . باريس) .

(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٩ .

وقد وصف ابن بطوطة حركة الملاحة في نهر النيل ومدى كثافتها فقال «... بنهر النيل ستة وثلاثين ألف مركباً للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات...»^(١) كما تحدث عن مدينة دمياط حيث ينزل الناس من البيوت التي على شاطئ النيل إلى النهر بواسطة دركات ليأخذوا المياه ، وكيف أن إنتاج الموز بالمدينة كان كثيراً ويصدر إلى القاهرة في المراكب ، كذلك تحدث ابن بطوطة عن رحلته في نهر النيل ، إلى الصعيد وكيف أن المدن والقرى منتظمة على شاطئيه وهي عامرة بالأسواق والمساجد لدرجة أن المسافر في المراكب لا يحتاج إلى أخذ شيء من الزاد معه لأنه متى أراد النزول إلى الشاطئ للوضوء والصلاة أو لشراء شيء من الزاد فيسجد حاجاته^(٢) وقد تحدث ابن بطوطة عن فيضان نهر النيل وطريقة الري والزراعة واحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج ، كما أنه قد لاحظ العلاقة القوية بين حالة الفيضان والحالة الاقتصادية للبلاد وحدد نسب الفيضان المعروفة في ذلك العصر ومدى ملاءمتها للري والزراعة مبيناً أن قصور النهر عن حد الوفاء يجلب المتاعب والفوضى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كما أن طغيان النهر على الأرض يخرب الدور ويفسد الزراعات وتنتج عن ذلك نفس المتاعب^(٣) .

والمثال الثاني هو « الرحالة العبدري » واسمه بالكامل « أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحليحي » ويبدو أنه عربي من قبيلة قريش أصلاً ، وقد بدأ رحلته من مراكش عبر بلاد المغرب العربي ثم دخل مصر من حدودها الغربية ثم واصل ترحاله براً في طريقه إلى الأراضي الحجازية ثم مر بمصر مرة أخرى في طريق عودته إلى بلاده^(٤) . وقد وصف الإسكندرية وعمود السواري ، كما وصف مدينة القاهرة وقد خصها بالدم وقال فيها كلاماً لم يقله أحد غيره بادئاً ذلك بقوله «... وجدناها معيذية المعنى ببعض ما رأينا بها وسمعنا...» مشيراً بذلك إلى المثل القائل « تسمع المعيدى خير من أن تراه »^(٥) كما وصف الأهرام ، وقال العبدري عن نهر

(١) المرجع السابق ص ٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٨ .

(٤) انظر رحلة العبدري : المقدمة (نشر محمد الفاسي الرباط ١٩٦٨) .

(٥) رحلة العبدري : المقدمة .

النيل « . . . ونيلها من عجائب الدنيا عذوبة ، واتساعاً وغلة وانتفاعاً ، وقد وضعت حوله المدائن والقرى فصار كسلك انتظم درراً . . . »^(١) .

وقد أورد العبدري — كسائر المعاصرين — بعض الأحاديث النبوية والقصص الذي الذي يجعل قدر النيل ويحيطه بهالة من القدسية^(٢) .

وقد تحدث أيضاً عن مزايا النهر وكيف أنه لا يوجد نهر يزرع عليه ما يزرع نهر النيل ، أو يجبي منه ما يجبي من نهر النيل ، وذكر مناسيب الفيضان ومد مناسبتها لحاجة الأراضي من الري كما تحدث عن نظام الري المصري قائلاً : « . . . وصورة السقي عندهم أن أهل كل بلد لهم خلج تخرج منه (نهر النيل) فإذا أترعها أفاض على المزارع وسقتها كما تسقى سائر الأنهار ، وقد علموا أين ينتهي سقي كل مقياس . . . »^(٣) وواضح أن العبدري لم يكن قادراً على الإلمام بكل هذه المعلومات خلال زيارته القصيرة لمصر وإنما استقاها من غيره أو من المصريين ، ولكنه تحدث عن الملاحة في نهر النيل والقوارب التي تسير فوق صفحته ، ويبدو أن عم النهر قد أخافه فقد ظل يقرأ القرآن طوال وجوده في المركب حتى عبر النهر^(٤) .

أما الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر في العصور الوسطى بوجه عام وفي عصر سلاطين المماليك بوجه خاص فقد كان عددهم كبيراً ، ولكننا يجب أن نلاحظ أن إطلاق اصطلاح « رحلة » على هؤلاء غير جائز وذلك أن معظمهم جاء إلى مصر في مهمات تجارية وسياسية وتكمن أهمية هؤلاء في أنها تشمل معلومات طريفة لا تتواجد في كتابات الرحالة المسلمين إذ أن ما يعتبره المسلمون أمراً عادياً في حياتهم اليومية قد يبدو غريباً وطريفاً وجديراً بالتسجيل في أعين مسيحي الغرب الأوربي ومن ثم جاءت هذه الملاحظات لتمدنا بالكثير من المعلومات عن أحوال مجتمع ذلك العصر .

(١) المرجع السابق : ص ١٤٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ - ١٤٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٦ .

(٤) المرجع السابق ص ١٤٥ - ١٤٧ .

ومن أهم الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر في عصر سلاطين المماليك « بيلوتي Piloti de crete » الذي زار مصر في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ، ومكث بها مدة طويلة ، وهو من أسرة من أعيان البندقية استوطنت الجزيرة (كريت) ، وقد صادفت الأربعون أو الخمس وأربعون سنة التي زاول فيها التجارة حكم خمسة من السلاطين الجراكسة فقد جاء إلى مصر في أواخر عهد برقوق ، ثم فرج بن برقوق الذي قربه إليه ، و« المؤيد شيخ » و« ططر » وأخيراً « برسباي »^(١) وقد عاش بيلوتي في مصر فترة كبيرة وأحبها وسماها « هذه البلاد السامية جداً » كما أسماها « بلاد الله الأولى » وقرر أنه « لا يوجد أغنى منها في الدنيا » وأن تجارة الشرق والغرب لا يمكن أن تستغنى عنها ، كذلك تمنى أن يكتب الله له أن يموت فيها ، وأن يقبر في كنيسة القديس سيرج بالفسطاط ، ولكنه توفي بفلورنسا على الأرجح^(٢) .

وقد وصف مدينة القاهرة فقال أنها أكبر مدينة في الدنيا وهي إحدى المدن السبع الكبرى ، وقد وصف نهر النيل بقوله « . . . النهر الذي يقال أنه ينبع من الجنة الأرضية ويعيش الناس على مائه وحصاده وسمكه وفواكهه . . . » « والنهر واسع جداً قرب القاهرة لدرجة أن الناس تسميه البحر . . . »^(٣) .

وتحدث عن مياه النهر فقرر أن « . . . ماء النهر أحسن ماء في الدنيا لا يوجد مثله . . . » ويستطيع الإنسان أن يشرب منه ما شاء وفي أي وقت يشاء دون أن يضره . ثم تحدث عن طريقة أخذ الماء من النهر وكيف أن هذا الماء يشفي المرضى ويفتح الشهية^(٤) .

وتحدث بيلوتي عن فيضان النهر وأهميته بالنسبة للبلاد فقال « . . . في بلاد السلطان لا تمطر الدنيا أبداً ويتركز الأمر والحياة على فيضان النيل السنوي » ، ثم وصف مقياس النيل في جزيرة الروضة وطريقة قياس الزيادة وكيف يذهب كل يوم عدة رجال يركبون الخيول ويرفعون الأعلام إلى صاحب المقياس ليعلموا مقدار زيادة النهر ثم يسرون في شوارع المدينة يصيحون « أن النهر زاد كذا علامة » وذلك كي يطمئن الناس ، كما

Dopp : L'Egypte au Com. p. 15

Ibid : pp : 15 - 16 (introd.).

Ibid : p : 3.

Ibid : pp : 9 - 10.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

وصف احتفالات كسر الخليج يوم وفاء النيل ، بأنها عيد كبير « تجرى فيه السفن والقوارب فوق النيل » ، وقد عاصر بيلوتى إحدى المجاعات التى ألمت بمصر بسبب قصور النيل ، ووصف حالة الفوضى الشاملة التى عمت البلاد ، وكيف أن أعداداً لا تحصى من الناس قد تساقطوا صرعى المجاعة فى الطرقات ^(١) .

وقد وصف بيلوتى طريقة الري والزراعة لدى الفلاحين المصريين فى ذلك العصر ، وكيف أنهم يفتحون سدود الترغ التى تعين عليها الحراسات أوقات الفيضان فى جماعات كل منها عشرة ممالك ، وذكر أنه بعد فتح السدود تصير الأرض كأنها منظر ماء بحر حقيقى ، وتصبح القرى فى الوسط كأنها جزائر يتم التنقل بينها بالقوارب ، وحين تجف الأرض يبذر الحب بطريقة بدائية ^(٢) .

كما وصف بيلوتى الكريتي حركة الملاحة فى نهر النيل وفروعه فقال « عند قرية شطانوف تجتمع كل القوارب الآتية من فرع رشيد والتى تأتى من دمياط حاملة بضائع وأشياء أخرى وعلى طول السنة نرى من جوانب الجزيرة (دلتا النيل) فى كل يوم آلاف المراكب تجرى فى النهر محملة بالبضائع الذاهبة إلى القاهرة ^(٣) » .

ومن الرحالة الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين الرحالة « بيرو طافور » وهو أسباني الأصل يرجح أنه ولد فى قرطبة ، وقد زار مصر سفيراً وباحثاً وتاجراً ، ورجلاً متطوعاً لمعرفة حقيقة عالمه فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ^(٤) وقد وصف ميناء دمياط وحدد موقعه من البحر المتوسط فقال أنه يقع على بعد فرسخ ونصف كما وصف الحمام الزاجل ونهر النيل الذى قام برحلة فوق مياهه من دمياط إلى القاهرة فى مركب وصفها فقال أنها مركب كبيرة بها حجرات متعددة وهى كبيرة الحمولة وتسير بالشرع والمجاديف ورغم ذلك فإذا واجهها التيار لا تسير إلا إذا جذبت بالحبال من على الشاطئ ، كما أنه مركب به عدة طبول لإخافة التماسيح التى يبدو أنها كانت كثيرة فى النهر آنذاك ^(٥) .

Ibid : pp : 21 - 22.

Ibid : pp : 21 - 23.

Ibid., p., 21.

(٤) رحلة طافور (ترجمة د . حسن حبشى) : ص ١ من المقدمة .

(٥) المصدر نفسه : ص ٥٩ .

وقد قال طافور عن مياه نهر النيل « . . . ماء نهر النيل أحسن ماء في الدنيا ، وكأنه ماء الجنة ، ولم أشرب طول زيارتي سوى هذا الماء على الرغم من أنه كان باستطاعتي الحصول على النبيذ الجيد . . . »^(١) .

كما وصف المقياس بجزيرة الروضة ، وكيفية قياس الزيادة وإعلانها فقال « . . إلى جانب مدينة بابليون حيث يشقها النهر توجد ثلاثة أعمدة تقوم في الماء ذات خطوط معينة ، وكتابات قديمة ، فإذا كان الوقت شهر سبتمبر وقد ارتفع النهر أقيم الحراس عليها حيث يرقبون كل ساعة زيادة المياه ، فيذكرون مقدار الارتفاع لمنادين ينطلقون في المدينة كل ساعة يعلنون وفي صوت عال مدى الزيادة في النهر ، فإذا بلغت الزيادة أقصاها عرف الناس إلى أي حد يستطيعون بذر الحب ، وعمّا إذا كانت السنة خصبة أم مجدبة »^(٢) .

وتحدث طافور عن الحيوانات المائية التي تعيش في نهر النيل ، ووصف التماسيح وخطرها على الناس وكيف أن الفلاحين — لعجزهم عن استئجار القوارب — كانوا يعبرون مخاضات المياه أثناء الفيضان فوق ظهور الجواميس خوفاً من التماسيح ، كما وصف طريقة صيد التماسيح ، وكيف أن صائديها كانوا يسرون بها في الطرقات وهي ميتة التماساً للصدقات من الناس ، كما تحدث عن أفراس النهر ووصف طريقة صيدها^(٣) .

ونخلص من كل ما سبق إلى أن كتاب عصر المماليك — سواء كانوا مؤرخين أو جغرافيين شعراء أو أدباء ، وسواء كانوا من الرحالة (شرقيين وغربيين) — أدركوا قيمة النهر في حياة مصر والمصريين في ذلك العصر كما أدركها من سبقهم ومن لحقهم على مر العصور فحفلوا به وأفردوا للكتابة عن النهر الخالد الصفحات الطوال والمؤلفات يعددون فيها مزاياه وفضائله ، ويوضحون فضله على البلاد وأهلها ولا غرابة في ذلك فالنهر الخالد هو أساس الوجود المصري كله .

(١) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ — ٧٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٦١ .

وقد نتج عن انتظام الفيضان انتظام مماثل في حياة المصريين بشتى وجوهها ، سواء في الزراعة أو طريقة فرض الضرائب على نتاج الأرض الزراعية وسارت الحياة الاقتصادية وفقاً لتواريخ التقويم القبطى (الشمسى) المتوارث عن الفراعنة لا سيما فيما يتعلق بالزراعة .

وتدل مرتبة « كاشف الجسور » ، ومن يتبعه من الموظفين على العناية التى كان يبذلها الممالك لصيانة مراقق النهر ووسائل ضبطه .

وكان المفروض أن تمويل هذه المنشآت من بيت المال ، ولكن الشعب كثيراً ما تحمل عبء تمويل هذه المرافق من أمواله فى شكل مقررات تجبى من الناس ، وكانت بعض الوظائف المؤقتة تنشأ لهذا الغرض .

وأوضحت فى هذا البحث أنه كلما كانت الحكومة قوية انعكس ذلك على كفاءة أعمال ضبط النهر والعكس صحيح تماماً . وكانت بعض هذه المنشآت تنشأ من أموال الأمراء الخاصة على سبيل الصدقة ورغبة فى التقرب إلى الله ، بينما كان بعض السلاطين يوقف وقفاً معيناً للإنفاق على هذه المرافق ، كما أن مبدأ تعويض أصحاب الأملاك التى كان يتم الاستيلاء عليها لمثل هذه الأغراض كان موجوداً على الأقل فى بعض الفترات .

ويتضح من هذا البحث أن العمال المستخدمين فى هذه الأعمال فى تلك العصور كانوا خليطاً من عمال السخرة والعمال المأجورين الذين كانوا يتقاضون أجورهم نقداً فى بعض الأحيان ، وفى أحيان أخرى يكون نصف الأجر نقداً والنصف الآخر عينياً ، وعادة ما كانوا يجمعون من بين جموع الفلاحين فى القرى وعامة أهل المدن .

وقد اهتم المصريون بقياس زيادة نهر النيل وترقبوها وتتبعوا أحوالها ، حتى إذا أوفى النهر أقيمت الزينات وبدأت مهرجانات العيد القومى احتفالاً بوفاء النيل وفى بعض الأحيان كانت مصاريف هذه الاحتفالات تجبى من أبناء الشعب ولم تكن احتفالات الوفاء هى المظهر الاجتماعى الوحيد المرتبط بالنهر العظيم ، بل أن كثيراً من الأعياد المتوارثة عن قدماء المصريين مثل « النيروز » وعيد الشهيد « والصليب » ارتبطت بالنهر وكانت كلها أعياداً مصرية خالصة لم يجلبها العرب الفاتحون .

كذلك كان للنهر أثره فى الناحية السياسية ، إذ كان الناس — وفقاً لمفاهيم ذلك العصر —

على المحتاجين في بعض الأحيان ولكن ذلك الموقف من جانب الحكومة كان ناجماً عن روح التصديق والإحسان ، ولم يكن تعبيراً عن إدراك حكام ذلك العصر لمدى مسئوليتهم تجاه الشعب وتوفير الرعاية والغذاء لأفراده ، بدليل أنه في أثناء بعض الأزمات كان أمراء المماليك يقومون بنقل غلالهم إلى منازلهم في حراسة « المماليك الملبسة » ، وبدليل ما كانت الدولة تلجأ إليه أحياناً من وسائل المصادرة والاستيلاء على أموال الناس لموازنة نفقاتها وإيراداتها التي تختل بسبب وجود الأزمة . وفي أحيان أخرى كانت الدولة تتخذ بعض الإجراءات الاقتصادية كالتسعير ، وتحديد المباع من الغلال بتحد أقصى تجنباً « للخرن » أو السوق السوداء على حد تعبيرنا المعاصر .

وفي أثناء هذه المجاعات والابوثة يهرب السلطان وأمراؤه من القاهرة إلى سرياقوس والطور وغيرهما ويفعل ذلك أيضاً الأعيان ومياسير الناس ويبقى « العامة » — سواد الشعب غداء سهلاً لهذه الكوارث والنكبات .

ثالثاً : كان نهر النيل في عصر سلاطين المماليك وسيلة مواصلات طبيعية لا نظير لها بواسطتها يمكن تبادل منتجات البلاد بين أنحائها ، وتنقل المسافرين بين مدنها وقراها وكانت مصر آنذاك سوقاً طبيعية لتبادل منتجات أوروبا وإفريقيا وآسيا ، وكان النيل هو الوسيلة الرئيسية لنقل هذه البضائع ، ورغم أن التجارة الخاصة كانت شبه محرمة بسبب احتكار المماليك للتجارة ، إلا أن حركة الملاحة النيلية كانت كثيفة بدرجة كبيرة ، كما يبدو أن كل المدن المصرية الواقعة على شاطئ النهر كان لها موانئ ولو من نوع بدائي . بينما كان للقاهرة ميناءان أحدهما بساحل الفسطاط والثاني في بولاق ، وفي موانئ القاهرة كان يوجد « الجمرك » على تجارة المرور بين أفريقيا وآسيا وأوروبا عبر الأراضي المصرية لكن النيل لم يكن في كل الأحوال طريقاً مأموناً للتجارة بسبب قراصنة النهر لا سيما في أوقات الفوضى والحروب الداخلية وحين تكون الحكومة ضعيفة .

وكانت هناك رسوم تفرض على المراكب والمسافرين فيها كما خضعت المراكب لرقابة من نوع ما ضماناً لسلامة المسافرين وكثيراً ما شهدت صفحة النهر الاستعراضات بالمراكب بعد استكمال بنائها برسم الجهاد ، أو قبل خروجها للحرب ضد أعداء البلاد في الداخل أو الخارج .

رابعاً : سنجد أن بعض الكتابات الواردة عن النيل في المؤلفات الباقية من عصر المماليك تعتمد على التراث اليهودي والمسيحي الذي جعل نهر النيل من أنهار الجنة التي تحدد النظريات الوسيطة موقعها في أقصى شرق العالم على الجانب الآخر من الأقيانوس ، ويبرر هذا ما يذكره الكتاب من أن النهر يأتي عبر المحيط من الشرق ، كما يبرر ما جاء في بعض الكتابات من أن النيل والسند ينبعان من مكان واحد .

وقد حظى النهر بمكانة هامة في الأساطير العربية إذ دارت القصص الخرافية حول محاولات كشف منابعه ومجراه وتعليل ظاهرة فيضانه ، وإن كان البعض قد اقترب في ذلك من الحقيقة أو كاد كما أن النهر الإله (حابي) في عهود الوثنية قد أصبح نهراً مؤمناً ومن أنهار الجنة لدى كتاب العصور الوسطى المسلمين تعبيراً عن مكانة النهر العظيم في نفوس أهل مصر ومن خالطهم .

وفي الشعر والأدب كان النهر موضوعاً مفضلاً يلهب خيال الشعراء والأدباء في عصر سلاطين المماليك ، ولم يقصر هؤلاء الشعراء أو الأدباء في التعبير عن مشاعر المصريين تجاه نهرهم المحبوب ، ولا غرو فالنهر قوام الحياة المصرية ، وعليه مدارها فكان مسرحاً لخيالات الشعراء والأدباء ومجالاً لتفكيرهم ومراحاً لحدسهم .

كذلك فإن الرحالة الذين زاروا مصر في العصور الوسطى — وما أكثرهم من الشرق والغرب بسواء — أدركوا أهمية ذلك النهر فكتبوا عنه الكثير يصفون حلاوة مائه ، وحركة الملاحة فيه ، واحتفال المصريين بوفائه وما إلى ذلك من الأمور .

ملحق رقم (١)

ثبت المجاعات والأوبئة التي ألت بمصر في عصر سلاطين المماليك

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المرجع
٦٦٢ هـ ١٢٢٥ م	غلاء ناتج عن قصور النيل ، في عصر السلطان الظاهر بيبرس أكل الناس أوراق اللفت والكرنب وأوراق الفول الأخضر .	السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٩٥ المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٠٦ / ص ٥٠٧
٦٧٢ هـ ١٢٧٣ م	ألم بمصر وباء وكان أكثر ضحاياها من النساء والأطفال .	المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦١٢ ، تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ١٠ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٣ ورقة ٥٨٨ (مخطوط)
٦٩٤ هـ ١٢٩٤ م إلى ٦٩٥ هـ ١٢٩٥ م	توقف النهر عن الزيادة فأعقب ذلك الغلاء والمجاعة التي تلاها الوباء الشامل حتى عجز الناس عن مواراة موتاهم ونحلت القرى من سكانها .	المقريزي : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠٨ - ٨١٥ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٩٨ / ٢٩٧ تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٤١ ، المقريزي : إغاثة الأمة ص ٣٧ - ٣٨ ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٤ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٨٢

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م	فشّت في الناس أمراض حادة ، ولكنها لم تتسبب في موت الكثيرين وصحب ذلك قصور النيل والغلاء بطبيعة الحال	المقريزي : السلوك ج ١ ق ٣ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٣ ، ابن أبيك : الدر الفاخر ص ١٦٣ / ١٦٤
٧١٦ هـ ١٣١٦ م	حدث الوباء عقب حالة جوية وصفها المقريزي بقوله أن ريحاً سوداء هبت وأعقبها مطر ثم الوباء بأرض أسوان وإسنا وأرمنت . هلك فيه خلق كثيرون وامتد الوباء إلى الاشمونين .	المقريزي : السلوك ج ١ ق ٣ حوادث سنة ٧١٦ هـ
٧٢٠ هـ ١٣٢٠ م	حدث طاعون شديد « قل أن سلمت منه دار » .	السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠١ ، تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ص ٢٧٠
٧٣١ هـ ١٣٣٠ م	ألم بالبلاد « وباء يسير » .	ابن أبيك : الدر الفاخر ص ٣٥٨/٣٥٩
٧٣٦ هـ ١٣٣٥ م	توقف النهر عن الزيادة ، وأعقب ذلك مجاعة جعلت السلطان الناصر محمد ابن قلاوون يأمر بفتح شونهم لإطعام الفقراء .	المقريزي : إغاثة الأمة ص ٤٠
٧٤٧ هـ ١٣٤٦ م	حدث الغلاء بمصر ، وقد حدث غلاء مماثل في حلب أيضاً .	تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٤٩

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م	الفناء الكبير أو الوباء الأسود وهو وباء شمل كل أرجاء الكرة الأرضية تقريباً نتيجة لزحف بعض الأمراض الوبائية من مشارق آسيا غرباً تجاه مصر وأوروبا . وقد فتح بأعداد هائلة من المخلوقات ومن بينها الإنسان بطبيعة الحال .	المقريزي : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٧٧٠ حوادث ٧٤٩ هـ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٣٠٣ ، ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٠٤ - ٢٠٩ المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٢١ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٤ حوادث ٧٤٩ هـ .
٧٦١ هـ ١٣٥٩ م	انتشر الوباء بالقاهرة واستمر قائماً بالبلاد حتى عام ٧٦٢ هـ ومات فيه كثير من الأعيان .	السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٣ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ص ١١٨ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣١١ .
٧٦٤ هـ ١٣٦٢ م	فشّت الطواعين والأمراض الحادة بالناس في القاهرة ومصر وعامة الوجه البحري .	السلوك ج ٣ : ق ١ ص ٨١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٣ .
٧٦٩ هـ ١٣٦٧ م	انتشر الوباء الرهيب في القاهرة ومصر حيث بلغ عدد الموتي يومياً أكثر من مائة نفس واستمر قائماً يفتك الناس حوالي أربعة أشهر .	السلوك ج ٣ ق ١ ص ١٦٢ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٣ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٥١ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٧٧٥ هـ ١٣٧٣ م	توقف النهر عن الزيادة واستسقى الناس ومات عدد ضخم من ذوات الأربع وأعقب ذلك « الفناء » .	ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٢٩ .
٧٧٦ هـ ١٣٧٤ م	حدث نتيجة لعدم زيادة النيل أن حلت المجاعة فأعقبها الوباء الذي بلغ ضحاياه حوالى مائتين من الحشريين وخمسمائة من الطرحاء .	ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ٤٤ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ص ١٨٣ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٥ ، المقریزی : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢٣٥ .
٧٧٧ هـ ١٣٧٥ م	نتج عن قصور النيل مجاعة أبلأت الناس إلى أكل الميتة والقطط والكلاب ، ويقال أن بعضهم أكل بعضاً بل إن البعض أكل أولاده ، وباع كثير من الفقراء أولادهم وافتقر خلق كثير ونبت ذلك انتشار الوباء .	ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ١٤٩ .
٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م	أهلت هذه السنة والأمراض في الناس فاشية ومات جماعة من الطاعون .	المقریزی : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٣٠٣ .
٧٨٢ هـ ١٣٨٠ م	بدأ الوباء ولكنه كان في الإسكندرية فقط .	أنباء الغمر ج ١ ص ١٤٩ .
٧٨٣ هـ ١٣٨١ م	انتشر الطاعون من الإسكندرية إلى القاهرة وبلغ عدد الموتى في القاهرة ثلاثمائة ميت .	السيوطي : حسن ج ٢ ص ٣٠٦ ، ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ١٨١ ، المقریزی : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٤٠٩ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م	وقع الغلاء بالقاهرة .	السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٦ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ١٨١ .
٧٨٧ هـ ١٣٨٥ م	وقع الغلاء بمصر .	ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٢٢٣ .
٧٨٨ هـ ١٣٨٦ م	وقع وباء بالإسكندرية .	المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٥ .
٧٩٠ هـ ١٣٨٨ م	وقع بالقاهرة وضواحيها طاعون قضى على على عدد من الناس وظل هذا الوباء متفشياً في الناس حتى عام ٧٩١ هـ .	ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥١ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٢٦٦ ، المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٥٧٥ ، ٦٠٠ .
٧٩٤ هـ ١٣٩١ م	في هذا العام ألم بالبقر مرض وبأى قضى على عدد هائل حتى كاد أن يفتى منها إقليم مصر . . .	السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٦ ، المقرئ : السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٧٦٩ .
٧٩٥ هـ ١٣٩٢ م	وقع وباء بالإسكندرية .	ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٣٥٥ .
٧٩٦ هـ ١٣٩٣ م	يذكر المقرئ أن مجاعة متقطعة ألت بالبلاد ما بين عامي ٧٩٦ هـ و ٨٠٨ هـ صحابها الوباء في كثير من مراحلها حتى حل عام ٨٠٨ هـ ليجد أن توالى المجاعات والأوبئة قد أخرج البلاد ، وقضى على أكثر من نصف السكان .	المقرئ : اغاثة الأمة : ص ٤١ - ٤٣ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٧٩٧ هـ ١٣٩٤ م	« وقع الوباء وتوقفت أحوال الناس من قلة المكاسب » .	المقريزي : السلوك ج ٣ / ق ٢ ص ٨٢٦ .
٧٩٩ هـ ١٣٩٦ م	وقع الوباء واستمر ثلاثة شهور .	العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٤٠ .
٨٠٠ هـ ١٣٩٧ م	وقع الوباء بالوجه البحرى والقاهرة .	المقريزي : السلوك ج ٣ / ق ٢ ص ٨٩١ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٤٣٢ .
	السعال والباردة « وكان	العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ص ١٠٠ ، ابن حجر انباء الغمر ج ١ ص ٥٠١ ، المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٠٣ .
	ففعت وحل	العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ص ١٩٨ .
	نشر من	ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٦٣١ ، ٦٣٢ ، المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١١١٩ .
	فيهم	ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٦٤٠ .
	بيلاد غالب	ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٣ ص ٥٢ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٨١٠ هـ ١٤٠٧ م	انتشر الطاعون بالبلاد .	السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٨ .
٨١٢ هـ ١٤٠٩ م	انتشر الطاعون بمصر كما انتشر بحماه وطرابلس .	ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ٧ .
٨١٣ هـ ١٤١٠ م	انتشر الطاعون بمصر وقضى على عدد كبير من الناس .	ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٣ ص ١٧٨ .
٨١٦ هـ ١٤١٣ م	انتشر الطاعون بمصر .	السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٩ ، ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ٥٧ .
٨١٨ هـ ١٤١٥ م	وقع الطاعون أيضًا في هذه السنة بمصر ، وقد صاحب ذلك غلاء عظيم ، وانتشار الفتن والاضطرابات .	السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٩ ، ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ٧٧ .
٨١٩ هـ ١٤١٦ م	انتشر الطاعون بمصر والقاهرة ثم امتد ليشمل كل البلاد ، وصاحب ذلك الغلاء .	العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٤٢٤ ، السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٩ ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ٩٢ .
٨٢٠ هـ ١٤١٧ م	انتشر الوباء بالإسكندرية ودمياط .	ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ١١٦ .
٨٢٣ هـ ١٤١٩ م	انتشر الطاعون في أنحاء البلاد ابتداء من القاهرة ثم امتد لينتشر في الشرقية والغربية .	السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٩ ، ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ١٤١ ، ابن تغري بردي : ج ٦ ص ٣٩٤ (كاليفورنيا) .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٨٢٣ هـ ١٤٢٠ م	انتشر الطاعون في القسطنطينة والإسكندرية	ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ١٥٨ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٤٩٨ .
٨٢٨ هـ ١٤٢٤ م	انتشر الوباء في دمياط وتسبب في موت عدد كبير من الرقيق والأطفال .	ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ١٩٦ .
٨٣١ هـ ١٤٢٧ م	كان بلاد الصعيد الأعلى وباء شديد ومرض حاد مات منه كثيرون .	ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ٢٤٤ .
٨٣٣ هـ ١٤٢٩ م	انتشر الوباء ليشمل غالب أقاليم الوجه البحري بعد القاهرة ، وقد عاصره المورخ أبو المحاسن بن تغري بردي وقال إن بيوتاً كثيرة خلت من سكانها مع كثرتهم وأن الإقطاع الواحد كان ينتقل في مدة قليلة بين ثلاثة أجناد وأربعة وخمسة .	ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٥٣ (كاليفورنيا) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٦٣٠ ، ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ٢٥٨ ، السيوط حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٩ .
٨٤١ هـ ١٤٣٧ م	انتشر الطاعون بالقاهرة ومصر .	ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٥٨ (كاليفورنيا) ، ابن حجر أنباء الغمر ج ٢ ص ٣٥٠ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٩ .
٨٤٨ هـ ١٤٤٤ م	بدأ الطاعون ينتشر منذ أواخر سنة ٨٤٧ هـ واستمر قائماً حتى سنة ٨٤٨ هـ وكثر موت الأطفال والرقيق .	ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٣١ (كاليفورنيا) ، ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ٤٢٥ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٨٥٢ هـ ١٤٤٨ م	ظهر الطاعون في الديار المصرية .	ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٦٤ ط . (كاليفورنيا) .
٨٥٣ هـ ١٤٤٩ م	حل عصر الغلاء بسبب قصور النيل وموت كثير من الأبقار لعدم وجود العلف .	المرجع السابق ص ١٧٣ — ١٧٤ .
٨٥٥ هـ ١٤٥١ م	حل الغلاء بمصر وهو امتداد للغلاء السابق ذكره .	المرجع السابق ص ٢١٩ .
٨٦٤ هـ ١٤٥٩ م	انتشر الطاعون بالقاهرة ومصر ثم انتشر إلى الضواحي والقرى ومات فيه عدد ضخم من السكان .	المرجع السابق ٥٢٨ .
٨٨٨ هـ ١٤٨٣ م	فشّت في الناس أمراض حادة ومات بذلك جماعة كثيرة .	ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢١٧ (ط . بولاق) المرجع السابق ص ٢٥١ .
٨٩٢ هـ ١٤٨٦ م	حلت بالبلاد مجاعة وكان يموت كل يوم عدد كبير من الناس .	
٨٩٧ هـ ١٤٩١ م	وقع الطاعون في مصر وأهلك عدداً كبيراً من السكان بلغوا حوالى مائتى ألف إنسان .	ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ (٧ . بولاق) .
٨٩٩ هـ ١٤٩٣ م	هبط النيل وشرقت أغلب الأراضي الزراعية ونتج عن ذلك الغلاء .	المرجع السابق : ص ٣٢٧ .
٩٠٣ هـ ١٤٩٧ م	تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية .	المرجع السابق ص ٣٣٩ .
٩٠٤ هـ ١٤٩٨ م	عاد الطاعون مرة أخرى ولكنه أخف وطأة .	المرجع السابق ص ٣٥٤ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٩٠٩ هـ ١٥٠٣ م	بدأ الطاعون خفيفاً ثم غاب ثمانية أشهر وعاد سنة ٩١٠ هـ بصورة أشد .	ابن أياس بدائع الزهور : ج ٤ ص ٦٦ (طبعة محمد مصطفى) .
٩١٢ هـ ١٥٠٦ م	ظهر الطاعون ببلاد الصعيد .	المرجع السابق : ص ١٠٩
٩١٨ هـ ١٥١٢ م	ظهر الطاعون بالإسكندرية ورشيد وبعض السواحل ولم يدخل إلى مصر والقاهرة .	المرجع السابق ص ٢٩٥ .
٩١٩ هـ ١٥١٣ م	ظهر الطاعون بمصر ومات به جماعة من العبيد والحواري واشتد بدخول الحماسين وقتل بالناس فتكاً ذريعاً .	المرجع السابق : ص ٢٩٦ إلى ص ٢٩٩ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر الأصلية :

(أ) المخطوطات :

- ١ - ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين بن علي) ت ٨٥٣ هـ :
* إنباء الغمر بأنباء العمر (جزءان دار الكتب ٢٤٧٦ تاريخ) .
- ٢ - ابن أبياس (أبو البركات محمد بن أحمد) ت ٩٣٠ هـ :
* نشق الأزهار في روض المعطار (دار الكتب ٤٣٩ جغرافياً) .
- ٣ - ابن أبيك الدوادار (أبو بكر عبد الله بن أبيك) :
* الجزء الثامن من « كثر الدرر وجامع الغرر » وعنوانه : « الدرة الزكية في تاريخ دولة الملوك التركية » (دار الكتب ٤٦٤٣ تاريخ) .
- ٤ - الجوحري (شمس الدين محمد الجوحري الشافعي) ت ٨٦٤ هـ :
* منظومة الجوحري (١٢٠ بيتاً دار الكتب ٥٧٠ جغرافياً)
- ٥ - الحجازي (بدر الدين أحمد بن محمد بن علي) ت ٨٧٥ هـ :
* نيل الرائد في النيل الزائد (دار الكتب ٣٨٠ جغرافياً) .
- ٦ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩١١ هـ :
* كوكب الروضة (الخزانة التيمورية ٥٥٤ تاريخ) .
* الكلام على النيل (دار الكتب ٣٨١ جغرافياً) .
- ٧ - العيني (بدر الدين محمود) ٨٥٥ هـ :
* عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (٢٥٠ جزءاً) (مخطوط مصور بدار الكتب) .

- ٨ — المنوفى (شهاب الدين أحمد بن محمد) ت ٩٣١ هـ :
 * الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد (دار الكتب ٦٦ جغرافيًا) .
- ٩ — المحلى (جلال الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم) ت ٨٦٤ هـ :
 * مبدأ النيل على التحرير (دار الكتب ٣٨٠ جغرافيًا) .
- ١٠ — النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٨٣٣ هـ :
 * نهاية الأرب فى فنون الأدب (من ج ٢٧ إلى ٣٠ دار الكتب ٥٤٩ معلومات عامة) .
- ١١ — الوطواط الكتبى (محمد بن إبراهيم بن يحيى بن على) ت ٧١٨ هـ :
 * مباهج الفكر ومناهج العبر ٤ أجزاء (نسخة مصورة بدار الكتب برقم ٣٥٩ علوم طبيعية) .
- (ب) الكتب المطبوعة :
- ١ — ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) ت ٨٧٤ هـ :
 * النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
 (طبعة دار الكتب حتى الجزء ١٢ ثم ج ١٣ تحقيق محمد فهم شلتوت ،
 وطبعة كاليفورنيا ابتداء من حوادث سنة ٨١٥ هـ) .
- ٢ — ابن أياس (أبو البركات محمد بن أحمد) ت ٩٣٠ هـ :
 * كتاب تاريخ مصر المسمى « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ٣ أجزاء
 طبعة بولاق ١٣١٢ هـ ثم ج ٤ ، ج ٥ نشرها الدكتور محمد مصطفى
 (الطبعة الثانية) .
- ٣ — ابن زنبيل (أحمد الرمال) ت ٩٦٠ هـ :
 * آخرة الممالك (نشر عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦٢ م) .
- ٤ — ابن مماتى (الأسعد بن مماتى الوزير الأيوبرى) ت ٦٠٦ هـ :

- * قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريال عطيه القاهرة ١٩٤٣ م) .
- ٥ - ابن بطوطة (عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثم الطنجي :
* تحفة النظار في غرائب الأنصار وعجائب الاسفار (باريس ١٨٨٠ م) .
- ٦ - ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد) ت ٨٣٧ هـ :
* المدخل إلى الشرع الشريف (٤ أجزاء) القاهرة ١٩٢٩ م .
- ٧ - ابن جبير :
* رحلة ابن جبير (نشر الدكتور حسين نصار) .
- ٨ - ابن شاهين الظاهري (غرس الدين بن خليل) ت ٨٢٧ هـ :
* زبدة كشف الممالك وبيات الطرق والمسالك (باريس ١٨٩٤ م) .
- ٩ - ابن الجيعان (شرف الدين يحيى بن المقر) ت ٨٨٥ هـ :
* التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية (القاهرة ١٨٩٨ م) .
- ١٠ - ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدير العلأئي) ت ٨٠٩ هـ :
* الانتصار بواسطة عقد الأنصار ج ٤ ، ج ٥ (نشر فولر بولاق ١٣١٤ هـ) .
- ١١ - ابن أبيك الدوادار (أبو بكر بن عبد الله بن أبيك) :
* الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر « وهو الجزء التاسع من كنز الدرر »
نشر رويمر القاهرة ١٩٦٠ م .
- ١٢ - ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) ت ٨٠٧ هـ :
الأجزاء من ٧ - ٩ نشر د. قنسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين بيروت
١٩٤٢ م .
- ١٣ - ابن عبد الظاهر (محيي الدين) :
* الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية .
الجزء الثالث نشر الكس موبرج ١٩٠٢ م

* تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور .

نشر د: مراد كامل القاهرة ١٩٦١م

١٤- ابن الوردی (سراج الدین أبو حفص عمر) ت ٧٥٠ هـ :

* خريدة العجائب وفريدة الغرائب (القاهرة ١٢٨٠) هـ .

* تاریخ ابن الوردی القاهرة ١٢٨٥ هـ .

١٥- ابن ظهيرة :

* الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة .

نشر مصطفى السقا وكامل المهندس القاهرة ١٩٦٩ .

١٦- ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي) ت ٧٢٩ هـ :

* معالم القرية في أحكام الحسبه (كمبردج ١٩٣٧) م .

١٧- ابن خردذابة (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله) ت ٣٠٠ هـ :

* المسالك والممالك .

١٨- أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر) ت ٧٣٢ هـ :

* تقويم البلدان (باريس ١٨٤٠م) .

١٩- البغدادی (عبد اللطيف بن محمد بن يوسف) :

* الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر

نشر جوزيف هوايت ١٧٨٩م .

٢٠- السيوطی (جلال الدين عبد الرحمن) :

* حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (جزآن) نشر محمد أبو الفضل إبراهيم

٢١- السخاوی (محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر) ت ٩٠٢ هـ :

* التبر المسبوك في ذيل السلوك (طبعة بولاق ١٨٩٦م) .

٢٢- السبکی (تاج الدين عبد الوهاب) ت ٧٧١ هـ :

* معيد النعم ومبيد النقم (القاهرة ١٩٤٨ م) .

٢٣ — العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحبحي) :

* رحلة العبدري (الرحلة المغربية نشر محمد الفاسي الرباط ١٩٦٨ م) .

٢٤ — العمرى (ابن فضل الله) :

* مسالك الابصار في ممالك الابصار (الجزء الأول نشر أحمد زكى القاهرة ١٩٤٢ م) .

٢٥ — القلقشندي (شهاب الدين أحمد بن علي) ت ٨٢١ هـ :

* صبح الأعشى في صناعة الإنشا (١٤ جزءاً طبعة دار الكتب ١٩١٣ م) .

٢٦ — المقرئى (تقي الدين أحمد بن علي) ت ٨٥٤ :

* إغاثة الأمة بكشف الغمة نشر د. محمد مصطفى زيادة ، د. جمال الدين الشيال — القاهرة ١٩٤٠ م .

* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) .

* السلوك لمعرفة دول الملوك (قام الدكتور محمد مصطفى زيادة بنشر الجزء الأول ولثاني في ستة أقسام وقام الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بنشر بقية الكتاب » .

٢٧ — النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢ هـ :

* نهاية الأرب في فنون الأدب (طبعة دار الكتب حتى الجزء ١٨) .

٢٨ — النابلسى (أبو عثمان النابلسى الصفدى الشافعى) :

* تاريخ الفيوم وبلاده (القاهرة ١٨٩٨ م) .

٢٩ — مقدمة ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربى ت ٨٠٨ هـ)

القاهرة ١٩٣٠ م

٣٠ — « رحلة تافور في عالم القرن الخامس عشر »

ترجمة وتقديم الدكتور حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨ م) .

ثانياً - المراجع العربية الحديثة :

- ١ - أمين سامى : تقويم النيل - القاهرة ١٩١٦ م .
- ٢ - الدكتور جمال حمدان : شخصية مصر - ١٩٦٧ (دار الهلال) .
- ٣ - الدكتور حسنين ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين (جامعة القاهرة ١٩٦٤ م) .
- ٤ - الدكتور حسين فوزى : سندباد مصرى (الطبعة الثانية) القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٥ - الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :
* المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٦٢ م) .
* العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥ م) .
- ٦ - الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف :
* مصر فى عصر الاخشيديين (القاهرة ١٩٥٠ م) .
* مصر فى عصر الولاة (العدد ٢٤١ الألف كتاب) .
- ٧ - الدكتور محمد عوض محمد : نهر النيل (ط . خامسة) القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٨ - الدكتور محمود رزق سليم : النيل فى عصر المماليك .
- ٩ - الدكتور محمد مصطفى زيادة :
* بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر .
* مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٤ ط ١٩٣٨ م .

ثالثاً - المراجع الأجنبية :

1. Cahen (C.) "Le régime des impôts dans le Fayyum Ayyubidé".
Arabica, iii (1956), PP : 8 - 30.
2. Dopp (P.H.) : „L’Egypte au Commencement du quanzième siecle” (Le
Caire 1950).
3. Lane - poole (S.) : "A history of Egypt in the Middle Ages" (London 1901).
4. Muir (W.) : "The Mameluke, or slave dynasty of Egypt (Amesterdam 1968).
5. Popper (W.) : "A history of Egypt". (2 Vols.) (California 1954).
6. Quatre mère (M.) : "Histoire des Sultans Mamlouks de L’Egypte” .
(2 Vols.) (Paris 1837).
7. Encyclopaedia of Islam.
Art. Egypt, Al Nil, Kus, Assuan, Al Faywom and Art. Dumiat.

رقم الإيداع	١٩٧٨/٤٢٧٥
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٤٠٣-٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

۱۰۷۴۱۵/۰۱

